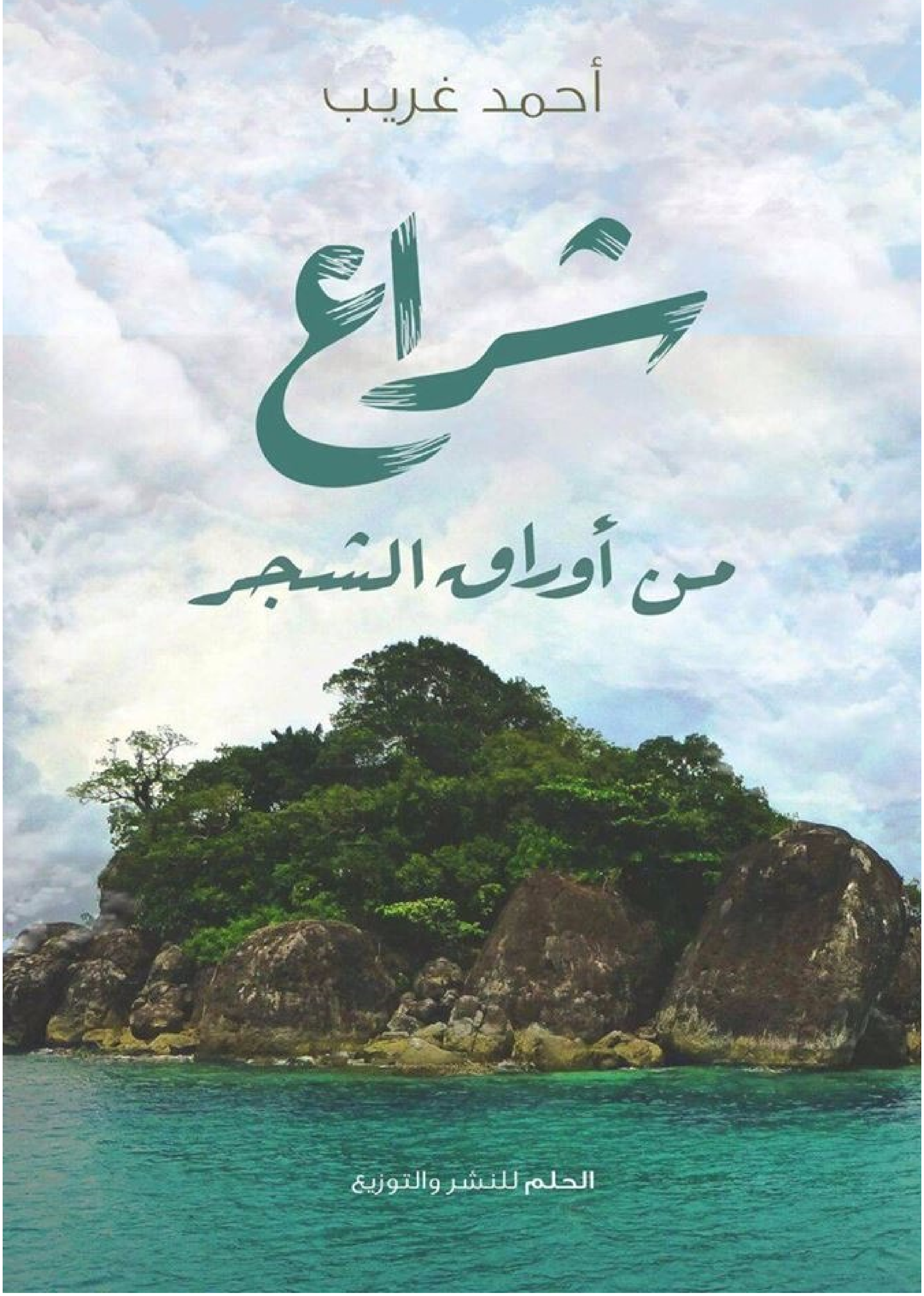

أحمد غريب
شراع
من أوراق الشجر
الحلم للنشر والتوزيع

أحمد غريب - شراع من أوراق الشجر ، رواية

رقم الإيداع : ٢٠١٧/٢٩٩٠٠ ISBN : 978-977-798-057-9

© دار الحلم للنشر والتوزيع

عضو اتحاد الناشرين المصريين

القاهرة - جمهورية مصر العربية

Mob : 00201141824562

dar_el7elm@hotmail.com

info.darel7elm@Gmail.com

شراع من أوراق الشجر

أحمد غريب

مراجعة لغوية: د. محمد صقر
غلاف : محمد عبد السلام

انتفخت أَوْداجُ رئيس الجامعة بفرحةٍ عارمة؛ فقد تلقى توا خبرًا جيدًا؛ اعتلى المنصَّة بسرعةٍ ثم توقف قليلاً ليلتقط أنفاسه ويزيل أثر الفرحةِ عن صوته, لكن رزانته المفتعلة بدتْ واضحةً في نبرته رغم كل ما فعل: "تلقينا الآن عرضًا سخيا من السيد آدم بتمويل بعثة الأبحاث التي نعتزم إرسالها لاكتشاف تلك الجزيرة المجهولة، وبعض البرامج البحثية الأخرى؛ لذلك أودَّ شكرَ السيد آدم بأطلاق اسمه على البعثة الاستكشافية".

قالها وأشار لآدم بيده، وانتقلت الأضواء مع حركة يده إلى حيث يجلس آدم الذي قام وأحنى رأسه تحيةً للموجودين!

كانت تلك الجزيرة التي يعتزمون اكتشافَها قد احتَلَّتْ صدارة اهتمام الناس في الأيام الأخيرة؛ حدث ذلك عندما نشر أحدُ مستخدمي الإنترنت صورةً لما يشبه الضريح الدائري مقامًا حول شجرة كبيرة في جزيرة مهجورةٍ كان قد عثر عليها بالصدفة عند بحثه على برنامج جوجل إيرث,

وانتشر الخبر بسرعةٍ على الفيس بوك, حتى وصل إلى بعض المهتمين بعلم الآثار والتاريخ.

نشرتْ الجرائدُ المحليةُ الخبرَ كاكتشاف طريف, لكن علماء الآثار انتابَهُم شك فور رؤيةِ الصور؛ أن هذا ربما يكون قبر الزعيم (فو) الذي حكت عنه الكثير من الحكايات الشعبية والأغاني التراثية؛ نَسبت هذه الحكاياتُ والأغاني إلى (فو) أنه الزعيم الذي جلب الرخاء لشعبه بقواه الخارقة!

وصلت الشرطة أولا وبسرعةٍ إلى الجزيرة, وفرضتْ (كردونا) حول المكان خوفًا من نابِشي القبور والباحثين عن الكنوز؛ حيث حَكَتْ إحدى الحكايات أن عظام (فو) من الذهب الخالص، وحكتْ حكايةٌ أخرى أن عظامه يمكن أن يُصنع منها إكسير للحياة الأبدية. وعلى قدر سخافة هذه الحكاية الأخرى التي تناقض نفسها بأن يكون إكسير الحياة جزءا من عظام شخص مات بالفعل، إلا أن الناسَ صدَّقتها !

بعد ذلك أعلنتْ جامعةٌ محليةٌ استعدادَها لإرسال نُخْبة من أفضل علمائها لاستكشاف الجزيرة , إلا أن التمويل كانَ العقبة الوحيدة؛ وكالعادة قَرَّرَ رئيسُ الجامعة عملَ حفلةٍ خيرية لجمع التبرعات من أجل الحملة, لم يكن يتوقع

بالطبع أن يقوم شخص واحد فقط بتمويل الحملة والإسهام أيضا في تمويل بعض الأبحاث, لكن ذلك لم يوقفه عن حثِّ باقي رجال الأعمال على التبرع للجامعة.

بحلِّ مشكلة التمويل أصبحت البعثةُ جاهزةً للتحرك, معتقدةً أنها قد تجاوزت أكبر مشاكلِها

لكن ما لم يخطر على بال هؤلاء العلماء أن التفسيرَ ليس ممكنا؛ فما خضع لمنطق عند حدوثه, لن يقبل أن يخضع لمنطق آخر حين تفسيره!

نظرة مختلفة لمشهد مكَرّر!

تراصَّ العلماءُ المشاركون في البعثة على مقدمة اليَخْت, ناظرين إلى الشمس وهي تخرج من جوف البحر, لم يخطر على بال أحدهم أنهم ينظرون إلى نفس المشهد الذي استوحى منه (فو) اكتشافه الخطير!

أمسك كلٌّ منهم بكأس من أفخر أنواع النبيذ, فقد وضع رجلُ الأعمال يخته الخاص بكل ما يحتويه من عوامل الرفاهية، تحت طلبهم، حتى إنهم تمنَّوا أن تطول الرحلةُ كثيرًا، لكنها لم تَطُلْ أكثر من بضع ساعات، مع الأسف!

فَوْرَ نزولها، صعدت البعثةُ المكونة من ثلاثة علماء؛ رجلين و امرأة، الجبلَ، في عجالة و معهم أربعة من المساعدين الأشداء، أرسلهم آدم، و قد كان هذا جيدا؛ لأن الأجهزة التي اصطحبها العلماء كانت كثيرة.

نصبوا خيمتهم الصغيرة فوق الجبل بجانب الكوردون الذي فرضته الشرطة على القبر، وشرعوا في العمل سريعا، باستخدام مفتشاتٍ صغيرة كنسوا الموقع كلَّه؛ ليحددوا أولاً ماهية المِنطقة حول القبر، ليتأكدوا أنها ليست بشكل ما

امتداداً له، ولم تكن كذلك بالفعل؛ كانت بالنسبة لهم مجرد أرض، بدؤوا في استخدام مجسّات بعد ذلك حول القبر لزيادة التأكيد، بعدها بدؤوا في اكتشاف القبر نفسه؛ حدوده وطريقة بنائه، اكتشفوا أنه مصبوبٌ و ليس مبنيا؛ هذا يعني أن السبيل الوحيد لفتحه سيكون كسره؛ فشرعوا في وضع خُطة لفعل ذلك مع المحافظةِ على القبر بقدر الإمكان.

مع نهاية النهار قرروا الاستراحة وأن يبدؤوا في العمل عند الصباح، نام العلماء والمساعدون سريعًا، لا من فرط الإرهاق في العمل، بل من فرط الاستمتاع على البَحْث!

دارو

اسم منطوق بالارجل (سابقا)

سنسميها دارو

(جزيرة دارو)

وعلينا نحن أن نفعل ذلك؛ لأن سكانها البدائيّين لم يفكروا بتسميتها, من ناحيةٍ لأنهم لم يجدوا داعيًا لذلك؛ فقد كانوا يكتفون إذا أرادوا الإشارة إليها بأن يدقّوا الأرض بأرجلهم، المذهلُ أن دقّ الأرجل هذه كانت تتغيّر حدَّتُها وطريقتُها كما تتغيَّرُ نَبْرةُ النطق عندنا؛ فتارةً يدقون على الأرض بخفةٍ في الاحتفالات، وتارةً بقوةٍ لإثبات الانتماء، وكأنهم يعزفون نشيداً وطنيا.

ولم يكن عدم التسميةِ راجعًا لصغر حجم الجزيرة؛ فسكان القارَّتين الأمريكيتين لم يختاروا لهما اسما قبل أن تُسمى (أمريكا), فأنت لن تسمي ما لا تراه كاملا, فما لا تراه على كامل هيئته لن تعيه ولن تفهمه!

ومن ناحيةٍ أخرى لم يسمِّها الغرباءُ أيضا؛ فلم يحاول أحدٌ أن يذهب إليها في تاريخ الجزيرة القريب إلا مرةً واحدةً, و لم يجدوا فيها شيئا مميِّزًا يحملهم على العودة إليها. وهذه كانت مما يمكن أن نطلق عليه: المزايا السلبية, مَيْزَةٌ تنتج عن نقص يبعد عنك الطامعين؛ فأحيانا يأتي المنحُ متخفيا في صورة المنع.

وجزيرة (دارو) هي عبارةٌ عن جزيرةٍ استوائيةٍ تقع في منتصف المحيط، وهي تقع في زمن بعيد جدا؛ ذلك لأن الزمنَ يختلف إذا ما قيس بالتطور, قد يكون هناك أماكن أخرى في العالم، وقت حدوث قصتنا، تعيش في عصر متقدم نسبيا, لكنهم هنا كانوا يعيشون في عصر بدائي؛ في أدواتهم، وفي علومهم، والأهم في طريقة فهمهم للعالم!

ولا أعرف لأي عالم يمكن أن تُنسب (دارو)؛ فلم تكن تقسيمات العالم إلى أول وثانٍ وثالث قد اختُرعت بعد، وهي تقسيمات اختيرت بعناية؛ حتى لا توحي في ظاهرها بالمهانةِ للمتخلّفين، لكنٍ تحتفظ في باطنها بالصدارة للمتفوقين!

وكمجتمع بسيطٍ لم تكن العلاقات هنا في (دارو) معقدةً أو متشابكةً، بلٍ كانت تعتمد على ركيزتين لإنشاء تجمع للبشر:

الأولى: هي ركيزة المنفعة المتبادلة، وهي التي تجعل للاجتماع قيمةً وأهمية؛ فتكون أساس تكوينه.

والثانية: هي ركيزة الامتناع المتبادل، وهي امتناع أفراد المجتمع عن الإيذاء، وعن الظلم، وعن السرقة، وعن الإكراه، وعن القتل، وهي الركيزة التي تبقي المجتمع قائما، فأن اختفت هذه الركيزة هجر الناس مجتمعهم.

من الطبيعي مع ذلك أيضا أن يسودَ الجزيرةَ نظامُ الحكم الفردي في صورته المستبدة, عندما كان يمكن لشخص واحد أن يجمع كل السلطات والصلاحيات في يده!

أما عن جغرافية الجزيرة فتشغل الغاباتُ معظم مساحةِ الجزيرة، ويحتل جبلٌ جزءاً كبيرا منها, ينحدر الجبل تدريجيا من الناحية المأهولة من الجزيرة، أما من الناحيةِ الأخرى فهو حادٌّ جدا بحيث تبدو هذه الجزيرة من بعيد, من الجانب الآخر غير المأهول منها، كجبلٍ أخضر كبير يعلو فجأةً على صفحة

المياه، وهو مشهد لم يره أي من قاطنيها الحاليين، على الأقل؛ حيث يعيشون جميعا في خليجٍ صغيرٍ يعتبر المكان الوحيد الذي يصلح للحياةِ، وإقامة بيوت, ويمتنعون عن الخروج من الخليج خوفًا من الأمواج، والأسماك الكبيرة!

بعيدا إلى الداخل, أبعد مما يمكن أن يصل إليه الموج, تتراصُّ مجموعةٌ من الأكواخ المتساوية في خط منحنٍ يوازي انحناء الخليج, يتوسطهم وإلى الداخل قليلا كوخ أكبر نسبيا هو كوخ زعيم القبيلة، في أحد هذه الاكواخ يعيش (فو) بطل قصتنا اليوم، وصديقنا (فو) هو رجلٌ نحيفٌ، طويل القامة مفتول العضلات, لونه يتغير بتغير الفصول, لم يكن لدى (فو) أي انطباع عن نفسه لأنقله إليكم مما قد يساعدنا في فهم شخصيته؛ فحتمًا شكله الخارجي ورؤيته لنفسه بالرضا أو السخط سيشكل أحد أهم عوامل سلوكه، لكن (فو) لم يكوّن رأيا عن شكله لأنه لم يرَ وجهه من قبل. كان يرى جسدَه من الأمام، وذراعيه اللذين يمثلان له أسلحته الأساسية، وأجزاءً من رجليه من الخلف، لكن لم يرَ وجهه. وبنى اعتقاده بأنه قوي على مظهر جسده، وهو بذلك لم يختلف عنا

جميعا؛ فنحن لا ننظر إلى أنفسنا طول الوقت، بل نكوّن انطباعا ونتصرف على أساسه مع العالم.

أما اسمه فهو لا يعدو أن يكون حرفين؛ ذلك لأنهم في مثل هذا المجتمع الصغير لم يجدوا حاجة لتمييز بعضهم البعض بأطلاق أسماء طويلة فقد كان عددهم، كما كانت مفردات حياتهم، قليلة لا تحتاج إلى تمييز بأسماء طويلة, وكان هذا الصوت -ومثله باقي الأصوات التي تدل على باقي أفراد القبيلة- كافيًا. والحقيقة أن الأسماء تحتلّ مكانة أكبر في تكوين الإنسان، لا يوجد إثبات لذلك أكثر من أنها كانت أول اختبار خضع له الإنسان لإثبات تميزه؛ ففي ذلك المشهد المهيب عندما جمع الله -سبحانه وتعالى- آدم والملائكة -عليهم السلام-, كان الاختبار الذي اجتازه آدم بنجاح هو الأسماء، وكانت لغتهم كذلك لغةً بسيطةً لَصْقِيّةِ؛ أي: تتكون في معظمها من الأسماء، وقليل من الأفعال, فيكفى أن تضع اسمين بجانب بعضهما ليتخيّل من تتحدث إليه شكل العلاقة بينهما.

نخلص من كل هذا إلى أنه في هذا المجتمع البِّكْرِ كان هناك نذرٌ يسير من البشر، وقليل من الكلمات والأفعال، وأقل القليل من الأفكار!

يد الشمس

استيقظ (فو) مع أول شعاع ضوء من الشمس يدخل إلى الكوخ الذي يسكنه مع زوجته (دي) وابنه (مو)، كانت الشمس بالنسبة له ولأبناء قبيلته مبدأ الحياة الأول، وقد علّمتهم عجوز القبيلة وهم صغار أن الشمس تمد يدَها لتؤلم من لا يحترم ضوءَها. وجرب هو ذلك بنفسه مرة عندما لم يستيقظ مع أول ضوء؛ فلسَعَته الشمس لسعةً قويةً انتفض على إثرها سريعًا محاولاً أن يرى يدَ الشمس التي سببت له هذا الألم، لكن الشمس سحبتْ يدها بسرعة لم تمكنه من ذلك. وقتها أخبرتهم عجوزُ القبيلة أن الشمس تترك أثرًا في جسد كل كسول؛ إنها تلك النقاط السوداء التي توجد في جسدنا. في كل مرةٍ لا تستيقظ مبكرًا تلسعك الشمس، وتترك نقطةً سوداء على جلدك.

وأخبرتهم العجوز أن هذه النقط تُورَّث أيضا وتوزَّع على سلالتك كما ولدتم أنتم أيضا بنقاط موروثةٍ من سلالتكم. هذا كان يعني في وعي القبيلة أن من يحمل حسنات كثيرة على جسده فهو من سلالة من الكسالى الذين لم يستيقظوا

عندما أمرتهم الشمس بذلك. وفي مجتمع بدائيٍّ جوّه حار كهذا، كان سهلا أن تعد حسنات الأجساد؛ فما يرتدونه ليس بالكثير, حيث يغطي الرجال والنساء الجزءَ الأماميّ من وسطهم فقط, و من الصعب جدا أن نعرف سبب ذلك؛ أهيَ الفطرةُ, أم الحياء, أم مجرد إخفاء الاختلا؟!

قام أفراد القبيلةِ إلى عملهم مباشرةً؛ فلم يكن تبادل السلام أو التهنئة بالصباح قد اختُرِع بعد، ولم يكونوا يملكون الرفاهيةَ لفعل ذلك, فالحياةُ على جزيرةٍ منعزلةٍ ليست سهلةً كما يحلم الرومانسيون؛ فالأسماك لن تصطاد نفسها، والحيوانات لن تسلخ نفسها، وتأتي إلى الشواء بأرادتها، ولن تقطع الأشجار نفسَها لتوقد لك على الطعام!

أخذ كل منهم فاكهةً من ركن الكوخ الذي يضعون فيه الطعام, ثم خرجوا إلى الشاطئ، ذهب ابنُ (فو) مباشرةً إلى جانب الشاطئ حيث يجتمع هو وباقي أطفال القبيلةِ عند الشجرة المنحنية منتظرين قدوم العجوز، التي كانت أحيانا كثيرة تقوم من النوم متأخرةً. وعندما سألها طفلٌ عن عدم خوفِها من بُقَعِ الكسلِ السوداء

ردتْ عليه بأنها لن تنجب في سِنِّها هذا، والبقع تورَّث فقط أثناء الولادة، وفي مرةٍ أخرى أخبرتْهم العجوز أنها تنام كثيرا؛ لأنها تتمرّن على الموت!

وعجوزُ القبيلة كانت وظيفةً دائمةً تتولاّها كبرى النساء سنّا وأقلهن قدرة على القيام بأعباء الأعمال التي تتولاها النساء. تتولى العجوز تعليمَ الأطفال، وشرح تاريخ القبيلة -و هو في هذه الحالةِ يحتوى على قليل من الحقائق، وكثير من الأساطير- للأطفال الذين لا يقدرون على المشاركة بعدُ في أعمال القبيلة، وعادةً ما يكون هؤلاءُ العجائز مخرّفات نظرا لكبر سنهن، وأيضًا تختلقن تفاصيل وأساطير خرافية جديدة ردا على أسئلةِ الأطفال وتفسيرًا لظواهرِ الطبيعة، ويغيّرن كثيرا من تاريخ القبيلة. ولهن هنا عذر؛ فأيٌّ إنسان يجد نفسه عاجزًا عن إجابه أسئلةِ الأطفال المحيّرة؛ تلك الأسئلة التي تعكس ذكاء الفطره قبل أن نبدأ في حشو أفكار مصمتة تقتل خيالهم، أو على الأقل توقفه عن النمو والظهور مجددا، كما أن أيّ إنسان لن يستطيع أبدا أن يسيطر على خيالِه الجامحِ إذا تأكّد أنه يملك الصوت الوحيد

المسموع، خصوصًا إذا أضفنا إلى ذلك جهلَ أو سذاجةَ مستمعيه!

هذه العجوز هي من علّمت (فو) أيضا، وقد أخبرت ابنَه عن بعض الطرائف مما كان يفعل وهو صغير، لكن لم يكن مفهومُ الحرج أيضا قد اختُرِع. أما من الناحية التعليمية، فعلى عكس المتوقع، كان وجود العجوز المخرِّفة أمرا جيدا للتعليم؛ فالخروج على تخاريفها وإثبات عكسها كان أمرا جيدا. وفي النهاية لم يكن هناك حد فاصل واضح بين تخاريفها وبين الحقيقة، كما كانت التخاريف تفتح آفاقا وتضع تحدياتٍ كثيرةً أمام عقول الأطفال؛ فكما أن الأطفال بدايةُ الجنس البشري الساذجة، كان هذا المجتمع البدائي يمثّل بداية البشرية، قبل أن تكفّ البشرية عن طفولتها، وتكتفي بوضع تعريفاتٍ متناقضة، أو -على أقل تقدير- قاصرة لتفسر كل شيء؛ فببساطةٍ شديدةٍ لو لم تكن تعريفاتنا قاصرة أو متناقضة؛ لصمدت أمام أسئلةِ الأطفال!

أما زوجته (دي) فقد اختارتها له الطبيعة، ففي عرف هذا المجتمع، كان البنتُ والولد اللذان ينضجان

معا، يتزوجان، ولم يكن الموضوع صعبا لهم في التوائم, فلم يكن هناك طباع ليتآلفوا عليها، كما لم يكن هناك فروقٌ جسديةٌ ملموسةٌ بين نساء القبيلة؛ فكل النساء والرجال هنا يكتسون بلون واحد منحته إياهم الشمس فلم يجد الخلاف طريقه لهم. ذلك الخلاف الأول على الأرض الذي وجد طريقة بين بني آدم نتيجة غرور رجلٍ رأى أنه يستحقّ أفضل من أخيه وتفاوت الجمال بين امرأتين لا يذكر كثير منا اسمهما. هذا لم يمنع أن الخلاف كان موجودا على الطعام في معظم الأحيان, لكن مع أول جريمتي قتل، مات في الأولى الرجلان المتقاتلان معا, وفقدت القبيلة اثنين من رجالها، أما في الثانية فمات واحد وظل الآخر على قيد الحياة؛ وعوقب الناجي بأن يكون مسؤولا عن جميع مهام القتيل بما فيها زوجة القتيل وعائلته, وكان هذا رادعا بما فيه الكفاية!

عند هذه النقطة رأى زعيمُ القبيلة وقتها أن القبيلةَ لصِغَرِ عددها لا تحتمل مزيداً من الصراعات؛ كان هذا ما رسخ أيضا في وعي أفراد القبيلة؛ ففرض السلام نفسَه بدافع الضرورة.

العجوز

انتفضت العجوزُ واقفةً، وهي تضرب بطنَها بيديها في ما يشبه قرع الطبول، لَفَّتْ بسرعةٍ حول الأطفال جميعا، حاولوا أن يلحقوا بها برؤوسهم إلا أنها تحرّكت أسرع؛ مما أدى لانقلابِ أحدهم على ظهره، أما الآخرون فاستندوا بأيديهم على الرمال، أخذت تلفّ حولهم وهي تدور حول نفسها وتقترب ثم تبتعد, و تقترب ثم تبتعد، وهي تدق على بطنها !

قالتْ بلهجةٍ مخيفة: "هذا كان الصوت الذي سمعناه أوّلا ، هذا كان الصوت الذي أطلقه الذين قدموا من البحر، الذين قدموا بسرعة ومن كل اتجاه، كنا نديرُ رؤوسَنا حولنا فنجدهم من كل مكان، أَتَوْا من فوق الجبل ومن الغابة، أتَوْا بجزيرتهم المتحركةِ من البحر، حاصروا بحرابهم وكانوا يحملون حِرابا جديدةً صغيرةً, كانوا يطلقونها من شيءٍ يشبه هلال القمر، يشبه خليجنا الصغير، كما سترَوْنه من فوق الجبل. كانوا يجذبون الحِراب الصغيرةَ إليهم ثم يتركونها دون أن يرفعوا يدهم عاليا، أو يقذفوها

فتتحرك الحِراب الصغيرةُ إلى أبعد مما يمكن أن تصل إليه الرماح بكثير. كانوا في نفس حجمنا ، ولكن لونهم مختلف!".

دقَّتْ على الأرض بقدمِها، وقالت أن لونهم كان مثل هذا اللون؛ لون الرمال، وكانوا يركبون جزيرتهم، فجزيرتهم التي يعيشون عليها تتحرك، وبها شجر طويل له أفرع تتأرجح مع الرياح. كانت العجوز تتحركُ وتتكلم بنشاط شديد لا يناسب حالتها الصحية، والعمرية، وكأنها كانت تعبيرا مجسداً لأنه ستبقى دائما بداخلنا قوة مختزنة لمرحٍ أخيرٍ.

قالت: "أصاب الغزاةُ اثنين من رجالنا حاولوا رميهم بالرمح؛ هَرْوَلْنا لنمنع الدم من الخروج من المصابين؛ فالدم ذلك السائل الذي يشبه لونَ الفاكهة الحمراء هو الروح التي نحيا بها ، إذا خرج منه الكثير يمكن أن تموت، لكن إذا خرج منه القليل يمكن أن تتعافى؛ لذلك نبقي كثيرا من هذه الفاكهة هناك في بيتي؛ فأذا ما أصيب أحد استطعنا أن نعوّض الدم بالفاكهة الحمراء"!

خفضت العجوز صوتها قليلا وهي تقول: "لم يمكث هؤلاء القادمون كثيرا؛ صعدوا الجبل ثم عادوا ، وأقاموا في الجزيرة يومين ثم رحلوا".

أكملت العجوز حديثها بعد أن عادت إلى النبرةِ السريعة المخيفة: "لم يقتلوا سوى واحد منا؛ لأنه رمى عليهم حربته، لم ينتظر ذلك المجنون أمرَ الزعيم، عندما أرادوا الرحيل طلب بعضُ رجالنا أن يرحلوا معهم، وأخذوا بعض الأطفال أيضا، لا بد أنهم يعيشون حياةً أفضل هناك معهم؛ فهم يحافظون علينا جدا، فنحن مميّزون بالنسبة لهم -وأشارت إلى بشرتها السمراء كدليل على ذلك التميز- فقد رأينا على جزيرتهم التي تركوها بعيدا قليلاً في المياه، ونزلوا لنا على جذوع أشجار أكبر كثيرا مما نستخدمها. بعض الرجال بنفس لون بشرتنا، وكانوا يخافون عليهم من النزول إلى هنا؛ فهم يعاملونهم كزعماء، بل إننا رأيناهم من بعيد يرتدون سلاسل لامعةً حول رقبتهم، إنهم زعماء مرفَّهون بلا شك"!

لم تكن العجوز تعلم أن قائد الغزاة الذكيَّ لمحَ انبهارَ القبيلة هذا، فرأى أن يستغله بدلا من العنف، فما تستطيع أن تكسبه بالمكر والدهاء أفضل كثيرا وأكثر إمتاعا مما تجلبه لك الحرب، ولم يكن صعبًا أن يقنع البدائيين بمصاحبتِه، بعد أن رأى اندهاشَهم من كل

شيء يحملونه؛ لذلك فأنه عند الرحيل، كان البدائيون يتهافتون على الرحيل معه, حتى إنه كان عليه أن يختبرهم ليرى من سيأخذه ليستعبده. كان الجانب المشرق الوحيد لهذا الغزو أنَّ الغزاة علّموهم بعض الأشياء النافعة كطهيِ الطعام ومداواة الجرحى؛ فقد كانوا يأكلون كل شيء كما هو أو مشويا فقط. ترك الغزاةُ شبكةَ صيد صغيرةً، لكن لم يعلُّموهم كيف يستخدمونها؛ فارتداها زعيم القبيلة في ذلك الوقت، كما رأى الغزاة يرتدونها؛ فكان يمشي ممسكًا بها من أطرافها ومُلقيا بها على ظهره, و يحرص على وضع الأسماكِ فيها يوميا كما رأى الغزاة يفعلون, لكنها لم تلبثْ أن اهترأت، ولم يستطع أحد ترميمها.

أخذت العجوزُ تصفُ المراكب التي أتى بها الغزاة بأنها جزرٌ كبيرةٌ تتحرك في الماء، بها نوعان من الأشجار, أشجار على قمتها، وكانت تقصد به الصواري، ولها أفرع بيضاء كلون داخل ثمرة الجوز هند، أو ثمرة الحياة، كما يطلقون عليها هنا, وأشجار صغيرة على الجانبين، يحركها كذراعين في الماء، أما شكل الجزيرة نفسها فأنها شبَّهته لهم كصدفة مقلوبة لسلحفاة كبيرة جدا. كان كلام العجوز مصدَّقا؛ لأن

العجوز كانت هي الوحيدة ممن يعيشون الآن على الجزيرة التي رأت الغزاة بنفسها, كانت صغيرةً جدا وقتَها، لكن هذا لم يغيّر حقيقة كونها شاهد العيان الوحيد الحي على الغزو. لم يترك الغزاةُ أثرًا حيويا؛ فلم يعبثوا بنسل القبيلة فمن أعجبهم من النساء أخذوهم معهم, وهكذا بقى نسل القبيلة صافيا، إلا شعر زعيم القبيلة فقط حيث تقول الأسطورة أنَّ زعيم الغزاةِ أهدى زعيمَ القبيلة خصلة من شعره ليهديها لأبنائه, وفرِحَ الزعيم بخصلة الشعر هذه؛ لأنها عوَّضته عن الشبكة المهترئة. وحدث ذلك عندما أقام في بيته الليلةَ التي قضوها على الجزيرة.

أخبرتهم أيضا أن الغزاة أعطوهم شرابًا غريبًا جعلهم ينتقلون إلى عالم آخر , ويَرَوْنَ العالم بشكل آخر مختلف تماما!

أكملت العجوز حكاياتِها, وقد كانت حكايةُ الغُزاةِ هذه أول حُلم يحلُمه كل أفراد قبيلة (دارو), بل أعتقدَ أنه كان الحُلمَ الوحيد أيضا.

الصيد أولا

وقف (فو) مباعِداً بين ساقيه، مُقَدِّمًا قدمَه اليسرى، شاهرًا رمحَه، وأخذ يراقبُ الأسماك التي تقترب منه. ارتكز في مكانٍ يسمح للماء أن يغمر أقل من منتصفِ ساقِه؛ فلقد تعلم أن هذا أفضلُ وضع للصيد، حتى يستطيع أن يحرّك جسده بدون أن تهتز قدماه، فأي حركةٍ مفاجئةٍ يقوم بها أثناء تصويب الرُّمح كفيلةٌ بأن تفزع الأسماك، وإذا فزعت الأسماك؛ فأنَّه حين يطلق رمْحَهُ إلى حيث السمكة فلن يجد الرمحُ السمكةَ في مكانها. عُرِف (فو) بين القبيلة بأنّه صيادٌ ماهر يعلم كيف يصوِّب رمحه جيدًا، لكن سرّ تميُّزِه أنه أيقن أن المهارةَ لا تكفي بدون خداع، ووفّرت له هذه الوضعيةُ الخداعَ الكافي فهو بهذه الطريقه يستندُ على قدم،ه لكن كل حركته تتم فوق الماء، فكان جسده أثناء الصيد ينقسم لقسمين؛ ساكنٍ تحت الماء، ومتحركٍ فوقه.

صوَّب رمحه إلى سمكةٍ يعلم شكلها، ويحب طعمها، فالأسماك ليست كمثل بني جنسه فكلُّها متشابهة الوجه، ويكمن الاختلاف في تفاصيل الجسد التي يمكن

تمييزها فقط من الألوان. الخيولُ أيضا كذلك، والخنازير، والقردة، والأسود.

إن بني جنسه فقط هم من يتمايزون؛ يميّزهم ذلك الوجه الذي يراه معلقا على أجسادهم التي تتغيرِ هي الأخرى، إلا أنه لاحظ أن الحيوانات يميزون بعضَهم، ويتزاوجون أيضا؛ هذا يعني أن هناك فروقا, حاول كثيراً أن يتقصّاها ، لكن لم يفلح سعيُه. كان (فو) يميّز بني جنسه من شكلهم الخارجيّ فقط، وبالأخص من وجوههم, وما زلنا نحن نفعل ذلك, فلم نسمع برجل وسيمٍ لأن بنكرياسه جميلٌ، كما لم نرَ أحدا يفتخرُ بصورةِ سونار لكبده ذي الشكل المميز.

مرّت سمكة بجانب (فو)، رمى رمحه وصادها, ثم نقلها إلى الشاطئ, بعيداً عن الماء، وتركها تتلوّى في كل اتجاه. كان قد تعلَّم أن يتركها بعيدا لأن إحداها يوماً تلوت حتى وصلت إلى الماء، وهربت مرة أخرى؛ هذه الحادثة جعلت (فو) يلاحظ أن الأسماك تتلوّى في كل اتجاه وليس في اتجاه الماء فقط. ربّما لا تعرف أن هذا بيتَها لأنها لم تره من على الشاطئ قبل ذلك، كانت هذه

الملاحظةُ كفيلةً بأن تجعله يفكّر كثيرا في بيته هو أيضا. عندما ينظر إليه من ناحيةِ الشاطئ يعرفه، لكن عندما نظر إليه من ناحية الخلف, ناحية الغابه لم يعرفه؛ فكل بيوت القبيلة متشابهة، عدا بيت الزعيم، وبيت العجوز؛ فوضع فرعا بالعرض على منزِله ليميزه.

عندما ذهب إلى أعلى الجبل ذات مرةٍ، وهو يذهب هناك كثيراً للصيد والتأمّل، ونظر إلى البيوت لم يستطع أن يميز بيته؛ ولذلك عندما عاد إلى القبيلة وقف عند أول بيتٍ في الناحيةِ اليمنى ومشى من هناك إلى بيته، إلا أنه لم يعلم ماذا يفعل، كل ما اهتدى إليه أنه يجبُ أن يبدأَ من هنا ، هذه هي البداية، لكن مُعضِلة (فو) كانت أكبر, فهو كشخص لم يعرف العدد؛ كان في مأزق كبير، إلى أن اهتدى إلى طريقةٍ أخرى مستخدماً أدواته، وهي في هذه الحالة لا تتعدى جسده ورمحه؛ فقرَّرَ أن يناسب بين وحدتين من أنواع مختلفة؛ كل أصبع من أصابع قدمه يماثل بيتًا من بيوت القبيلةِ؛ فوقف عند أول بيتٍ، واستمر في المشي تجاه بيته، ومع كل بيتٍ يمرُّ كان يعقِف أصبعا من أصابع قدمه للداخل. نظر إلى زوجته التي كانت تراقبه وهو

يمشي مِشيةً معوجّة غريبة؛ فقد كانت الوحيدة التي لاحظت ما يفعله هي زوجته ولم تُبدي أي رد فعلٍ؛ لأنها اعتادت على غرابته، انتهى من عَقْف أصابع قدمِه اليمنى أولا، ثم عقَف أصبعين من اليسرى التي تحمل أربعة أصابع فقط لأن سمكةً أكلت أصبعه الصغيرَ قبل ذلك في حادثة صيد، وهو صغير!

كانوا سبعة بيوت، وبيته البيت الثامن. عندما ذهب إلى أعلى الجبل بعد ذلك، جلس على صخره ومدّ قدميه في اتجاه القبيلة وأخذ يعقِف الأصابع حتى وصل للسابع فلم يرَ بيتَه؛ لأنه لم يعقف الأصبع الثامن. أخذ يجرّب حتى توصّل أخيرا إلى أنه لا داعيَ لعقف الأصابع.

أنزل قدميه قليلا ليرى البيوت من فوقها، نظر إلى البيوت ووجد أن بيتَه فوق الأصبع الثالث من قدمه اليسرى، فكّر أن يبدل بيته ليصبح العاشر، فبهذه الطريقة سيمد أصابعه لتغطيَ البيوت، ثم يكون بيته مكان الأصبع المقطوع. فكّر أن بيته سيبدو جميلا وسط أصابعه، وربّما عوضه ذلك المنظر عن أصبعه الذي فقده في صغره؛ فأخذ يحرّك في أصابعه، حتى أصبح

البيت يحتل مكان أصبعه المقطوع، وأخذ يعقِف أصابعه بيديه حتى يعرف كم أصبعًا عليه أن يعقِف، مضى عليه وقت طويل على حاله هذه فرحًا بأن يكون بيته مكان الأصبع الذي فقده. -لسبب لا نستطيع أن نفسره كان لدى هذا البدائي مشاعر تتأجّج في هذا الموقف- أفاق من مشاعره ليبدأ التفكير مرةً أخرى في استغلال اكتشافه؛ فكّر في الكيفيةِ التي ستفيده بها هذه الطريقةُ إذا كان يهرُب من شيء في اتجاه بيته؛ هل سيوقف الهرب ليتمدد و يرى بيته ؟! لم يشغل باله, المهم أنه الآن يعرف بيته من فوق الجبل، لن يكون مثل السمكة التي لم تعرف أين بيتها عندما رأته من الشاطئ، على الأقل سيعرف إلى أين يهرُب.

أحيانا يكون الأفضل لنا أن نعرف أي اتجاه نسلك، ثم تتضح الحقيقة تدريجيا أمامنا، كلما اقتربنا من هدفنا. عموما هو لم يكن مهتمًا بالحصول على إجابةٍ لكل أسئلته، كان يكتفي بطرح الأسئلة على نفسه؛ ثم ينتظر الإجابة، ولم يكن هذا سلوكه وحده، بل سلوك القبيلة كلها؛ إما أن تأتيهم الإجابة التي تفسّر أسئلتهم، أو إذا كان الموضوع

مهما بحيث يجب أن يكون له إجابة فأنهم يؤلفون حكايةً خرافيةً لتفسير ما عجزت عنه عقولهم!

الفكرةُ الأخرى التي سيطرت على رأسه كثيرا: لماذا كان بيته من أعلى صغيرا, أصغر من أصبع من أصابعه؟! لم يفهم قط كيف استطاع أن يحتوي بيته بين أصابعه!
واصل الوقوف لاصطياد أسماك أخرى، كان يقف على أهبة الصيد والهرب معا ، في وقت واحد؛ فكما يصيد يمكن ايضا اصطياده، وهذا أول دروس الحياة البدائية، لقد التهمت الأسماك أصبعه فقط، لكنها التهمتْ أرجلا كاملة لبعض أبناء قبيلته، منذ زمن قديم، ومع تكرار هذه الحوادث؛ منع زعيمُ القبيلة أي فرد من الدخول إلى المياه كثيرا ، وأعطاهم زعيم القبيلة الحكيم تعليمات أخرى بأن لا يصوّبوا رماحهم إلى سمكة لا يكون صيدها مؤكدا.

مبينا لهم أن خطر فرار سمكةٍ حاولوا إصابتها هو خطر كبير؛ لأنها قد تخبر بني جنسهاً بما تعرّضت له؛ فلا يأتون إلى الخليج مرة أخرى، ضاربا لهم مثلا بما يحدث مع الحيوانات. واستثنى زعيم بعده بعضَ المواسم، حين تندر

الأسماك في الخليج من حظر الدخول في المياه، فكان الزعيم يعطي بعضهم الحق في ركوب الأشجار للصيد. وكعادةِ البشريةِ من مصاحبة المنافع للكوارث، كانوا قد عرفوا هذه الحيلة حينما أتى إعصار دمّر بيوتهم، واقتلع بعض الأشجار ورمى بها في المياه، لم تغرق الأشجار؛ فاقترب منها صبيٌّ جامحٌ وركب فوق إحداها، مستلقيا بجسده كلّه على الشجرة فلم تغرق، فأخذ يجدّف بيديه، فأخذت الشجرة في التحرُّك حسبما يريد. رأى رجل ما حدث، فركب شجرةً أخرى، إلا أنه كان جالسًا محتضنا الشجرةَ برجليه، تاركًا إياها تتهادى في الماء. ثم أتى رجل ثالث وجلس أيضا، ثم بدأ في توجيه الشجرة برمحه، فالمياه ضحلة ويستطيع أن يدبّ رمحه في الأرض، ويدفعها حيثما شاء. إلا أنّ زعيم القبيلة وقتها نهاهُ عن ذلك حتى لا ترى الأسماكُ الرمحَ؛ فتهرُب؛ فاستعاض عن الرمح بفرع شجرةٍ. ثم أتى رابعٌ فاستخدم الفرع في التوجيه، ثم قلبه فوجد أنّ الأوراق التي في الفرع تشبه يده؛ فاستخدمه في التجديف، واستطاع بهذا أن يدخل إلى عُمْقٍ أكبر مما أتاحه غرز الفروع في الأرض.

هنا توقفتْ الاكتشافات فلم يظن أحد أن هناك شيئًا آخر ليكتشف، خصوصا أن من اكتشف ذلك كان الابن الأكبر لزعيم القبيلة وقتها، والمرشح لخلافته؛ فلم يجدِ أحدهم داعيًا لمنافسته التي يمكن أن تجر عليه عواقبَ وخيمةً. انتهى (فو) من الصيد، وعاد إلى بيته، أوقدت زوجتُه النارَ مسبقا ففي مجتمع كهذا كانت المرأة ترى زوجها وهو يصطاد على مرمى بصرها، وتعلم كم سمكة بقيت له حتى يرجع، أخبرها بعد ذلك أنه يريد أن يذهب ليرى جزءا من العالم المختبئ؛ فوافقته. كان هذا يعني أنه ذاهب للجبل، ليرى بعيدا داخل الجزيرة، أو بعيدا داخل البحر، فقد تعوّد (فو) على تقسيم العالم إلى عالم يراه، وعالم مختبئ. كلما تجوّل في البحر، أو ارتقى الجبل رأى اكتشافات أكثر من هذا العالم المختبئ، إنه عالم يظهر لمن يذهب إليه فقط، وقد ذهب فعلا إلى كل أنحاء الجزيرة في مدة المراهقة. تعرف على كل أشجار الغابة، وكل الرمال التي تحاصره في هذا العالم. أصبحت الجزيرة عالما مختبئا، مكتَشَفا بالنسبة له!

صحبته زوجته في هذه الرحلة الأولى، لكنها لم تهتم بالاستمرار فيها بعد ذلك, و لم تَشَأْ زوجتُه الذهابَ معه هذه المرة أيضا؛ فقد ملَّتْ من أن تذهب لترى عالما يشبه عالمها؛ فمن ناحية الغابة هناك غابات أكثر، ومن ناحية البحر هناك بحر أوسع. لكنه كان كل مرةٍ يعود بملاحظةٍ أو فكرةٍ جديدةٍ، وأحيانا -وهو الأهم- بصيد جديد؛ إذن فليذهب.

شعور بالحنين

كانت آخر مرةٍ ذهب فيها إلى الجبل مختلفةً؛ فقد أصيب وهو يحاول أن يتسلّق شجرة، واضطر إلى المكوث هناك أسبوعين كاملين، يأكل من أوراق الشجر ومن الأسماك التي كانت زوجته تملحها بمياه البحر.

عندما عاد المرة السابقة، مارَس هذا البدائيُّ أول شعور له بالحنين، ابتسم دون أن يعيَ أنه ابتسم، وأحس بانتشاءٍ غريب، لم يفلح في تشبيهه لنفسِه عندما تذكّره بعدَ ذلك، إلا أنه كان كفرْحة صيد أسماكٍ كثيرةٍ بضربةِ رمح واحدة!

فلم يسبق أن غاب أحد من أبناء القبيلة منذ وقت الغزاة، حتى أولئك الذين عاصروا الغزاة، لم يحسوا بالحنين لمن ذهبوا, فلا حنين بلا أمل.

فكّر أن يغيب هذه المرة أيضا ، لكن المسكينَ لم يكن يعرف كم غاب قبل ذلك حتى يغيب مثله أو أكثر منه، فكما عرفنا من أسلوب تمييز بيتِه أنه لم يكن يعلم العدّ بعد ، وهو في طريقه للجبل هذه المرة، لم يكن هناك

تغيرٌ ملحوظٌ في مِشيته سوى أن وتيرته كانت أبطأ ، إلا أن ملاحظتي الدقيقة جعلتني أرى أن أصابع قدمي (فو) كانت تتصرف بطريقةٍ غريبة؛ فقد كانت تنغرس في الرمال أكثر، ثم تنثني لتحمل معها قليلاً من الرمل الذي يتساقط كله قبل أن تلمس قدمه الرمل مرةً أخرى.

حاولتْ أصابع قدميه أن تتمسك برمال موطنه، كطفل صغيرٍ، يمسك بأصبع من يد أبيه فور ولادته، عندما انتهت الرمال، أصبح تعلق القدمين مؤلمًا ، حين احتكّت أصابع (فو) بالصخور، كما أن التعلُّق أصبح غير ذي معنى؛ فعاد (فو) إلى وتيرة مِشيته الأصلية!

أخذت عيناه تتجوّل حوله كعادته ليلاحظ كل جديد ، وكل خطير. في البداية شق (فو) طريقه إلى أعلى الجبل ببطء، لكنه لم يجد شيئًا جديدا في تجوال عينيه هذه المرة؛ فقطع الثلث الأخير من الرحلة، بدون تأمل.

ارتقى أعلى قمةٍ، وجلس بمواجهةِ الجزيرة، كما يفعل كل مرةٍ؛ اطمأنّ على وجود بيته، ومع غروب الشمس أكل شيئا يسيرا ، وجلس يشاهد الحياةَ تذبل في قريته، ثم نام.

الاكتشاف الخطير

تاركًا خلفه شعورا مجهولا ، لم يكن (فو) يدري أنه ذاهبٌ إلى اكتشافٍ قد يغيّر مجرى حياته. عندما صعد إلى الجبل أمضى يومه مثل باقي أيامه السابقة، في التأمُّل، ركض بعد ذلك وراء حيوانٍ غريبٍ في اتجاه النزول من الجبل، وعاد وراءه في اتجاه الكهف الصغير الذي ينام فيه فوق الجبل.

اختفى الحيوان قرب الكهف، وكان (فو) متعبًا لدرجة أنه لم يرد الانتظار للبحث عن الحيوان، دخل إلى الكهف واستلقى على الأرض، كان معتاداً على النوم على ظهره كما تقتضي معتقدات القبيلة؛ لأن روحه لن تخرج كاملةً إذا مات إلا بهذا الوضع، وإذا خرجت روحه ناقصةً؛ فلن يعود مرةً أخرى، لكنه اليوم وجد نفسه ينقلب على جنبه، ويتكوّر قليلا ؛ كان شيء ما يزعجه، إحساس التعب الشديد في حالته هذه كان كافيًا ليزعجه، بعَفَوَيةٍ وضع ذراعه على أذنه، سمع صوتًا غريبًا ، صوت دقٍّ مستمر.

في البدايةِ توقَّع أنه صوت أقدام الحيوان الذي كان يطارده، وبما أن الصوت قريب؛ إذن فالحيوان قريبٌ أيضا، إذن هناك احتمال لأن يتحوِّل هو إلى فريسة لهذا الحيوان الغريب. هَبَّ من نومه وأخذ يفتش حول الكهف بحثا عن ذلك الحيوان؛ فلم يجده. لم يزده ذلك الجهد إلا تعبًا، فعاد إلى الكهف واستلقى على ظهره، ثم بسرعةٍ على جنبه، ووضع ذراعه على أذنه مرةً أخرى.

إن نفس الصوت ما يزال موجودا، بل ازداد قوةً، تساءل: هل عاد الحيوان مرةً أخرى؟ فخرج مرةً أخرى، وفتّش أكثر هذه المرةَ؛ فلم يجد أيّ أثر لأيٍّ حيوان قريب، عاد ليتموضع بنفس الطريقة ليجد نفسه من جديدٍ يسمع نفس الصوت، بعلو أكبر؛ نصب نظره صوب فتحة الكهف، ولمس رمحَه ليتأكد من وجوده بجواره، وأخذ لدقائقَ يرهف السمع علّه يتبيّن حقيقة الصوت، لكن لم يكن هذا صوتًا شبيها لشيءٍ سمعه من قبل.

لمعت عيناه كالبرق فجأةً، ربما لم يعرف الصوت لأنه فعلاً لم يسمعه من قبل، بل سمع حكايات عنه، قفزت إلى ذهنه عجوزُ القبيلة، وهي تحكي عن الزائرين الذين أتوا

إلى الجزيرة من قبل؛ نسيَ التعب فجأةً، وقفز بكل ما أوتيَ من قوةٍ؛ قوة منحتها إياه أحلامه التي طالما حلُم بها بأن يختاره الزائرون ليرحل معهم عن الجزيرة، ليرى العالم المختبئ، خلف العالم المختبئ.

ارتقى لأعلى قمةٍ في الجبل، أخذ يدقّق النظر في البحر الواسع عله يرى شيئا ، أمضى تلك الليلة متحفّزا لانتظار شيء لا يعلمه، لرؤيه شيء لطالما حلُم به، وعلى وجهه رُسمت تعابير فرحة، وتحفز، يلوح من خلفها استعداد للمغامرة، يشوبه خوفٌ غير ملحوظ!

لم يخطر ببال (فو)، أن الغزاة الآتين قد يكونون مختلفين هذه المرة عن الغزاةِ السابقين؛ ففي تصنيفه البسيط، كان الناس في عالمه يتكوّنون من قبيلته التي تسكن عالمه، والغزاة الذين يأتون من العالم المختبئ.

غلب النوم (فو)، أيقظه نور الشمس أولا , ثم لسعتُها ثانيا ، ولأوّل مرة في حياته، لم يبالِ، كأنه ترك عالمه القديم خلفه بكل قوانينه، ولم يعد يهتم به، بل يتطلع لعالم جديد, قام بسرعةٍ لينظر حوله فلم يجد شيئًا بعد. جلس مرةً أخرى، وأخذ يراقب البحر من كل

الجهات، لم يجد ما يسليه سوى أنّه أخذ يقلّد حركة الموج برأسه، وأخذ يتخيّل شكل الجزر المتحركة التي سيأتي الزوّار عليها، ويتخيّل حياته لو اختاروه ليكون من السادة المرفّهين الذين يختاروهم ليسافروا معهم.

وتخيّل شكله وهو يرتدي السلاسل اللامعة، مرّت الساعات، و(فو) يراقبُ كل جوانب البحر، ولا يجد شيئا. عاد إلى الكهفِ سريعًا، ركض إلى الكهف حتى لا يفوته شيء، واتخذ نفس الوضعية، وسمع نفس الصوت، ركض إلى القمة بسرعةٍ، وخاب ظنه لأنه لم يجد شيئًا.

استغرق في جلسته وقتًا كثيرًا، قبل أن يلتفت إلى أنه هذه المرة استعمل يده الأخرى، وليست اليد التي سمع بها في الأمس , جرّب أن يسمع الآن فسمع الصوت خفيفا , أغلق أذنَه بيده فسمعه أعلى , جرّب اليد الأخرى فسمعه أيضا , جرَّب باطن فخذه فلم يسمع شيئا , أغلق أذنه فلم يسمع شيئا أيضا , إذن هذا الصوت يأتي من اليدين فقط.

قضى (فو) النهار كلَّه يراقب، حتى رأى القمر يبزغ من تحت الماء في آخر المحيط، ربما كان هذا الصوت الذي سمعه إعلانا لمجيء القمر، تلك الروح التي تحلّق في السماء

كل يوم، رأى القمر يولد من رحم البحر جزءا جزءا، ثم ينفصل صغيرا، ويكبر خلال الليل، وهو يعبر من فوقه قبل أن يموت في البحر مرةً أخرى، في الجهة المقابلة.

فكّر أن هذا الموج الذي يراه في البحر هو نتاج خروج القمر منه، مثلما يحدث موج عندما يدخل هو الآخر قدمه في البحر، أو يخرجها منه، تذكر (فو) ليلة سابقة، راقب فيها القمر. اعتبر (فو) يومها أن عالمه ينتهي هناك في هذه النقطة التي خرج منها القمر، فقد رأى القمر قبل ذلك، وهو يخرج من البحر، بل إنه رأى جزءاً من القمر داخل البحر، ثم رأى القمر يمشي في السماء، وفي البحر معا، وأخذ القمر يقترب منه؛ فألقى (فو) يومها بنفسه في المياه, كان يريد أن يمسك القمر الذي في الماء بيديه.

أراد أن يضيف روح القمر إلى روحه، لكنه لم يجدها، فكلما اقترب (فو), ابتعد القمر، دقق (فو) كثيرا من قبل في وجه القمر, لكنه وجد أن كل الأقمار متشابهة, مثل الأسماك والحيوانات, إلا أنه اليوم كان يرى القمر بصورةٍ أخرى، رآه كمبعث للحركةِ في البحر.

غفا (فو) قليلاً من كثرة توتّره، عندما أفاق لم تكن الشمس قد لاحت بعد في الأفق، لكنه جزم أنه لأول مرة استطاع أن يرى يد الشمس تُمسك بالبحر، وتقترب مع الشمس، ثم تختفي، بقي ساكنًا يراقب البحر والشمس. والأهم أنّه أخذ يراقب يد الشمس، وهي تقترب من الجزيرة.

لسعته يدُ الشمس، وهو لم يكن نائمًا، حدث معه هذا مرات كثيرةً قبل ذلك, و كان هذا يعني بالنسبه له أن الشمس تحذّره مما يفعل، وتطلب منه أن يكفّ عنه؛ أدرك أن الشمس تخبره أن يكف عن تتبع يدها، ولا يخبر أحدًا بأنه رأى يد الشمس؛ وأومأ (فو) برأسه مطيعًا.

قضى (فو) أيامًا لا يعلم عددَها على قمةِ الجبل يستمع إلى الصوت القادم من ذراعه , وعندما يئس من قدوم الغزاة، أو بالأصح أيقن أن الصوت لا يرتبط بهم، بل بشيءٍ آخر؛ قرّر أن يعود إلى القرية ليكمل حل اللغز!

ولادة جديدة

عاد (فو) في أول الليل، علم من زوجته أن هناك مولوداً جديداً ولد تواً، وسيقيمون مراسم الولادةِ في الصباح، استلقى (فو) أوّلا على ظهره كما تعود إلا أنه عاد وانقلب على جنبه، ووضع ذراعه على أذنه ليجد الصوتَ ما يزال موجوداً؛ إذن هو بالفعل ليس صوتَ الغزاة، وليس صوتَ الجبل أيضا ، وقد لمعت في ذهنه هذه الفكرة، وهو في طريقه إلى القرية.

كتم فكرَته حتى الصباح، عندما توجهوا جميعا إلى جدول الماء الكبير، لحضور مراسم مولد طفل جديد للقبيلة. منذ زمن طويل كانوا يقيمون هذه المراسم في البحر، حيث كانوا يقفون حتى تصلَ المياه إلى أعلى وسطهم، وتتقدم العجوز إلى داخل البحر أكثر منهم، وتغسل المولود في الماء، وتغسل الحبل السُّرّيّ، ثم تعطيه للأم التي تُخيطه لاحقًا على شكل عقد ترتديه حول رقبتها حتى يذبل، فتقسمه نصفين وتثبتهم في قطعةِ خشب واحدة، ثم تضعه، إذا بقيت الأم على قيد

الحياة، في الكوخ المخصّص للولادة، بجانب كل الحبال السُّرية لأبناء القبيلة الأحياء!

فأذا مات فردٌ من القبيلة خُيّط أحد جزئي الحبل السُّري في سرته؛ لأنه الرباط الذي سيربطه بالأرض الأم مرة أخرى، ووضع النصف الآخر من الحبل في حائط الأموات. لكن المراسم انتقلت إلى الجدول بعد حادثةٍ قديمةٍ قامت فيها الأسماك الكبيرة بالتهام عجوز القبيلة؛ فقد كانت تعطي ظهرها للبحر وتنظر في اتجاه الجزيرة، والكل يقف أمامها، ولكن على مسافةٍ بعيدةٍ نسبيا.

وقتها أتت سمكةٌ، وقبضت على العجوز من خَصرها، ألقت العجوز الطفلَ في الماء، وهَرَعَ الباقون إلى الجزيرة، إلا أبو الطفل الذي سبَحَ إليه، وأعاده ولم يعثروا بالطبع على حبله السُّري؛ فقرَّر زعيمُ القبيلة أن يُدفن معه حبل العجوز السُّري عندما يموت، لأنهما -كما قال زعيم القبيلة- امتدادان لروحٍ واحدة.

يومَها ولدت أسطورة تعاقب الأرواح، فترسّخ في وجدان القبيلة أنّ كل روحٍ تذهبُ تأتي مكانها روح، وكل روح تأتي تذهب مكانَها روح. وتم اختيار أكبر نساء القبيلة لتحل محلّ

العجوز، فلم يكن لهذه الوظيفة أي متطلبات سوى الجنون والخَرَف.

قامت العجوزُ بحركاتٍ احتفالية تمارسها دائمًا في مراسم الولادة، ثم قدمت الطفل للنهر والأرض والسماء، ويمَّمته شطْرَ البحر.

كانت أمه جالسةً على ركبتيها، وتمد يدَها للسماء، وللشمس تحديدا؛ لتشكرها على الطفلة الأنثى؛ لأن معتقدات القبيلة تقول أنهم يجب أن يمارسوا الحب في العراء مراتٍ عديدةً إذا كانوا يريدون إنجاب طفل، ويتخذون وضعيةً يكون فيها الرجل والمرأة ينظرون إلى السماء، ويعلقون نظرَهم بالشمس أو القمر. ففي عرفهم لم يكن هناك سوى روح واحدة لتمنح كل يوم؛ هذه الروح تهيم في السماء حتى تختار زوجين، فأذا منحتْ الشمس روحها إلى رحم المرأة فالمولود أنثى، والأنثى تَرِثُ من الشمس عينيْها التي تراقب ويدها التي تلسع وتعاقب.

أما القمر في الليل، فأذا أتى إلى رحم المرأة؛ كان المولود ذكرًا، فهذا القمر لم يكن بظنهم ثابتًا، والشمس كذلك، بل أرواح تحلّق في السماء تنتظر أن تتحوّل إلى

صورة آدمية في رحم امرأة، لكن وقت ظهور الهلال يسمح فقط لزعيم القبيلة بممارسة الحبّ في العراء؛ و ذلك لأن من يأتي له ذكرٌ في الهلال، يحكم الهلال الذي يسكنون فيه.

لم يرتبطوا طبعًا بفكرة التسعة أشهر، وكان غريبا أيضًا اكتشافي أن أهل هذه الجزيرة لم يعرفوا التقبيل!

بعد أن تنهي العجوز مراسمَها الاحتفالية، تنزع غمامةً تكون قد وضعت على عين الطفل منذ لحظة ولادته، وتمرّر الطفل ليراه كل أفراد القبيلة لا أدري إن كان ذلك إثباتًا لحضوره أم إثباتًا لهُويته! ويمارس بعدها أفرادُ القبيلة طقوسَهم الخاصة في الترحيب بالطفل الجديد، فبعضهم يحمله، وبعضهم يرفعه عاليًا، وبعضهم يكتفي بالنظر، ثم تطلق عليه أمه، أو زعيم القبيلة اسمًا، ويردده جميع أفراد القبيلة، وهم يدبّون على الأرض بأقدامهم، إثباتا لأنه ابن هذه الأرض التي لم يسموها.

ثم تقترب العجوز من الأم وتعطيها ثمرة من جوز الهند، لتشرب العصير الشفّاف الذي بداخلها ثم تأكلها؛ فهذه الثمرةُ ستتحوّل إلى اللبن الذي سترضعه الأم لولدها. كانت ثمرة

جوز الهند نادرةً في الجزيرة، فهي تنبت من شجرتين فقط، وتُجمع الثمار وتودع عند عجوز القرية، وكانت العجوز تعطي ثمرةً للأم عند الولادةِ حتى تدر اللبن، وللشاب إذا بدت عليه ملامح الرجوله ليفرز السائل المنوي!

تنتهي المراسم، وترقد الأم أياما لتستعيد عافيتها، وتتوزّع واجباتها على باقي النساء،

وتعود القبيلة إلى دأبها المعتاد، لكن (فو) يعود إلى تفكيره في الاكتشاف، لقد فاجأته فكرة أن هذا الصوت قد يكون عند باقي بني جنسه عندما رأى الطفل؛ اختلى بزوجته في الكهف ووضع يدها على أذنه؛ فسمع الصوت خفيفا، لمّا استغربت ما يفعله، وضع يده على أذنها وجعلها تسمع الصوت.

نظرت إليه نظرة من ينتظر تفسيراً، وفي المقابل وجدتْه ينظر إليها هو أيضا كمن ينتظر تفسيراً، وإن كانت نظرته لم تُخْفِ فرحَته باكتشافه الخطير.

خرجا إلى أعمالهما، ولكنه طلب منها أن تذهب معه إلى الكهف مرةً أخرى، طلب منها أن ترفع هي

يدها بدون أن يلمسها بيده خوفًا من أن يكون ما يسمعُه الصوت القادم من داخله هو، وقد سمع نفس الصوت، لكن كان الصوت أعلى هذه المرة.

في الليل انتظر (فو) أن ينام ابنُه ثم كرِّر معه التجربة؛ سمع صوتًا خفيفًا، لكن كان هذا برهانًا كافيًا له أن هذا الصوت يأتي من داخل كل أبناء جنسه . بحث (فو) في الأيام التالية عن الصوت في الأسماك التي اصطادها، وفي الحيوانات التي أمسكها، وسمعه فيها جميعا؛ ففي الأسماك اختلط عليه صوت الرَّعشة التي تنتاب السمك خارج الماء ومحاولة الخياشيم التنفس بالصوت الذي سمعه من داخله، وفي الحيوانات كان الصوت خافتًا!

انتقل (فو) بعدها إلى الأشجار يبحث عن الصوت بداخلها؛ فلم يجده. انتقل بعدها إلى الفاكهة المقطوفة من الأشجار؛ فلم يجد الصوت. تسلّق فروع الأشجار بعد ذلك ليسمع الثمار؛ فلم يجد الصوت. بعدها بأيام كانت هناك جنازة، ودخل (فو) إلى الغرفة التي يحتفظون فيها بالميت، فقد كانت عادتهم إذا مات أحد أثناء الليل، أو منتصف النهار أن يبقى وسط أهله حتى وقت الدفن، وهو مع طلوع

الشمس إذا كانت أنثى، وطلوع القمر إذا كان رجلاً؛ فبهذه الطريقة سيذهب كلاهما إلى العالم الآخر في يوم جديد.

وكان من ضمن المراسم أن يقترب كل أفراد القبيلةِ من الميت ليودّعوه بنظرة، أو بتَرْبيتةٍ على وجهه، أو بأشارةٍ ما، لكن أثناء هذه الجنازة حدثَ شيء جديدٌ؛ حيث تقدم (فو) إلى الجثة ورفع يد الميت ووضعها على أذنه، فلم يسمع شيئا، فتركها تسقط بجانب الجثة!

الغريب بعد ذلك -بعد أن أعلن (فو) اكتشافه- أن هذا أصبح تقليداً في القبيلة فأصبح لزامًا على أحدهم رفع يد الميت وتركها تسقط بجانبه، لم يستغرب أحد من فعلة (فو) سوى العجوز، نظرت إليه خِلسةً, ولم تبين حقيقة مشاعرها، لكنها قررت أن تراقب (فو) جيدا في الأيام القادمة!

بقيت المشاهد كلها معلقةً في ذهن (فو) إلى أن أتت الإجابة، عندما سقطت بجانبه ثمرة جوز هند، فأخذها ووضعها على أذنه، ليسمع الصوت بسرعة وسمعه بالفعل نتيجة تحرك السائل الذي كان ما يزال

يرتجّ بداخل الثمرة, استغرب ذلك فقد كان حاول مع ثمار جوز الهند التي في كوخ العجوز قبل ذلك، ولم يسمع شيئا, كرَّر التجربةَ مع الثمار الأخرى من جوز الهند فلم يسمع شيئا, أدرك (فو) أنه لم يسمع شيئًا لأن ثمرات جوز الهند الأخرى كانت قد ماتت.

هنا كوّن (فو) أولى نظرياته عن هذا الصوت, إنه الروح الموجودة في كل ما يتحرك فقط, وإن مصدر هذا الصوت هو القمر والشمس اللذان يخرجان من تحت البحر, فيسببان الموج، ثم يبحثان عن زوجٍ يمارس الحب في العراء، فأن لم يجدا؛ فأن الشمس والقمر يعطيان روحهما إلى الحيوانات والأسماك، وثمار جوز الهند فقط!

قرّر (فو) أن يخبر زعيم القبيلة وحده أوّلا ، لكنه قرّر أيضا أنه لا داعيَ للاستعجال، فهو يعلم من تقلبات الطقس أن مواسم ندرة الأسماك قريبةٌ، وبخبرة بدائيّ، وبفطرة إنسان؛ أدرك (فو) أن البطون الخاوية سهلة الإقناع، وأن الأيادي الخاملة عن العمل؛ سيسهل التلاعب بها ، وعلى كل حال فأن مناقشة اكتشاف خطيرٍ كهذا ستحتاج إلى وقت طويل ليس متاحا الآن.

في مرحلة الانتظار اختبر (فو) نظريتَه أكثر, رَصَدَ كل حيوان قابَله, واستبعد الحشرات من الأشياء المتحركة التي بداخلها الصوت, لكنه أثبت وجود الصوت في كل حيوان وجده, لكنّ التطور الأكبر أتى عندما قبض ذات يوم على ضفدع كبير الحجم نسبيا, لم يحتج أن يسمع الصوت، فبطن هذا الضفدع كانت تنتفضُ كلها, ركز (فو) كثيرا مع بطن الضفدع؛ إنها تهتزّ جدا, وضع يده على بطن الضفدع فوجدها رَخْوَةً, نام (فو) على ظهره فوجد بطنَه تعلو وتهبط.

فكّر (فو) أن الروح التي تتحرك بداخله توجد في البطن, ولكنّه يسمع صوتها في اليدين, جرّب أن يسمع

الصوت في بطن زوجتِه، فسمعه أيضًا، جرّب أن يسمعه في باقي أنحاء جسدِها، أراد أن يجد مصدرَ الصوت، وجده فعلاً في الصدر، وجد حوله عظامًا تحميه أيضًا، -والحماية لا تتوفّر إلا لشيء مهم-، إذن هذا هو مصدر الروح؛ اكتملت بهذه الملاحظة نظرية (فو)، وعاد إلى حياته الطبيعية منتظرًا الوقت المناسب لإعلان كشفه، كانت حياته طبيعية، لكن هو نفسه قد تغيّر، لم يكن طبيعيا قط؛ لقد غيَّر الاكتشاف نظرته لما حوله، أصبح لأول مرةٍ ينظر للدنيا بهذا المنظور فقط، منظور من لديه شيء واحد يحيا ليثبته.

التغيير الأكبر الذي طرأ على (فو) هو أنه أخذ يراقب كل أفراد القبيلة، خوفًا من أن يراقبه أحدهم ويسبقه إلى إعلان الاكتشاف، فقد رسم لنفسه خطةً لا يريد أن يفسدها أحد، ورغم حذره الشديد وانشغاله بالمراقبة، لم يكتشف (فو) أن العجوز تراقبه!

خُصلة تصافح الشمس

انحنى زعيمُ القبيلةِ قليلا، وهو يخرج من كوخه الكبير, رغم أنه لم يكن هناك داعٍ للانحناء، فبابُ الكوخ كبير، والزعيم كان ما يزال في منتصف الخمسينات من عمره، وقويٍّ البنية أيضا, إلا أن الزعيم كان دائمًا ينحني حتى تكون خُصلة شعره الصفراء أول ما يظهر منه خارج الكوخ, لتصافح خُصلتُه الشمس أولاً كما كان يعتقد, وقف لثوان خارج الكوخ حتى يعيَ الجميع خروجَه, كان أفراد القبيلة منشغلين بأعمالهم, فالوقت متأخرٌ بالنسبة لهم, لأن زعيم القبيلة يصحو متأخرا لأن يد الشمس لن تقدر أن تلسعه!

ولم يكن ذلك راجعا لشيءٍ سوى أن سقف كوخ الزعيم كان الأكثر دقَّةً؛ فلم يسمح لأَشعَّةِ الشمس باختراقه، وأن كوخ الزعيم هو الوحيد المزوّد بشبابيك محكمة أيضا, فلم تكن الشمس تدخله إلا على استحياء من على الباب, مشى الزعيم في اتجاه الشاطئ, كان يمشي بطريقةٍ غريبةٍ؛ حيث تَتَلَكَّأ رجله اليسرى قليلا في حركتها عن اليمنى, لم يكن ذلك لعيبٍ خَلْقِيٍّ فيه، بل لمرض أصاب أحد

أجداده, ومن يومها أصبحت هذه طريقةَ الزعماء في المشي!

ففي مجتمعات كهذه تطغى صفاتُ المنصب على صفات من يتولّى المنصب، حتى أن هذه المظاهر تكون في معظم الأحوال سببَ رغبةِ الناس في المنصب, انتظر (فو) بعيداً, فهو يعرف روتين الزعيم اليومي, وأراد قبل كل شيء أن يتأكد من حالة الزعيم المزاجيةِ اليوم؛ فهو يعلم أن مصير كشفه يتوقف على مدى قبول الزعيم له, بالإضافة طبعا إلى حسن اختيار كلماتك, وأن تخاطب الزعيم بمنطقه ومن وجهة نظره هو، وليس من وجهة نظرك أنت؛ فانت لا تعني شيئًا بالنسبة له!

لكن (فو) كان أذكى من ذلك أيضا, فخطا خطوة أكبر حيث إنه عزم على عرض اكتشافه غير كامل أمام الزعيم, بحيث يشرح كل المعطيات التي وصل إليها بدون النتيجة النهائية، ويترك هذه النتيجة السهلة الواضحة البديهية للزعيم، لكي يقولها كأنه توصل إليها بنفسه؛ هكذا يكون هو مجرد مشارك، ويصير الزعيم صاحبَ الفضل, ولم يكن هذا ليزعج (فو) فأحلامه التي يأمل أن يجنيها من وراء

الاكتشاف أهم من نسبة الاكتشاف له، وهو يريد موافقةِ الزعيم أولا ، ودعمه ثانيًا في ما يخطط له.

ولأن الزعيم سيُعَدُّ أنه شخصيا صاحب الاكتشاف؛ فأنه سيوفّر له كل الدعم، وكنوع من المواثيق غير المكتوبة المتعارف عليها، سيجعل الزعيم من (فو) قائمًا على المشروع مكافأةً له على إسهامه البسيط؛ لذلك أراد (فو) أن يطرح اكتشافه وملاحظاته على مسامع الزعيم وحده أوّلا، حتى يقوم الزعيم بأخبار القبيلة بنفسه.

ذهب (فو) إلى الزعيم في جِلسته أمام الكوخ، وقصّ عليه اكتشافه كما خطَّط بالضبط، وعرض عليه حيْرَتَهُ في تفسير كل الشواهد التي رآها ولاحظها حتى الآن، وقاده في كل الخطوات التي رسمها له، ولعب الزعيمُ الدور المخطِّط له بدقة بأعلان اكتشافه للروح التي ينقلها الشمس والقمر إلى الجزيرة، وقال أن الشمس والقمر هما الروح التي يجب أن نكتشفها ونعلم من أين يولدان كل ليلةٍ، هنا أفصح (فو) عن فكرته بأن يذهب إلى حيث رأى الشمس والقمر يولدان لاكتشاف العالم

المختبئ خلف المختبئ، ووافقه الزعيم في ضرورة فعل هذا وأضاف بعض الملاحظات التي تفيد بأنه كان يفكر في نفس الأمر من مدة!

وانصرف (فو)، وقبل غروب الشمس جمع الزعيم أفراد القبيلة ليخبرهم بما لاحظه (فو) وبما وصل إليه اكتشافه هو، بمجرد أن انتهى الزعيم من كلامه انقلب المكان إلى سيرك، وضع الكل أولاً أيديهم على آذانهم وأغلقوا أذنهم الأخرى، ثم رقد بعضهم على ظهره وسمع الباقون الصوت القادم من صدورهم، ثم تناوبوا، حتى اقتنع أفراد القبيلة كلُّهم بوجود الصوت لدى بني جنسهم، ركض طفلٌ خلف أرنب، وآخر وراء فرخةٍ، وسمعوا الصوت من داخلهما، وناولوهما لباقي أفراد القبيلة، التقط أحدهم ثمرة جوز هند من كوخ العجوز، ولم يسمع الصوت؛ تأكد الجميع، كل واحد بطريقته، من الصوت.

بدأت بعد ذلك مناقشة المهمة الاستكشافية، عارضت العجوزُ، -على غير ما توقَّعَ (فو)- هذه الرحلة؛ فقد كان يظن أنها ستسانده، وكانت حجتها أن اكتشاف مكان روح الأجداد ليس مناسباً، ليس مناسباً أن نخترق

خصوصيتهم, لكن كان صعبًا أن يتفهم أحد موقفَ العجوز ففي رأيهم أنها على وشك الانتهاء، ولذلك فهي زاهدةٌ في أي اكتشاف جديد.

عندما توالت الآراء التي ترفض رأي العجوز أضافت العجوز بأصرار شديدٍ أن هناك حكمةً ما من عدم اختلاط العالمين. اعترض رجل، بناءً على رأي العجوز, وقال آخر رأيه بأن يتم التمهُّل في دراسةِ الموضوع؛ لأن إرسال أحد لاكتشاف المكان يحمل مخاطرةً كبيرةً, كانت الحَيْرة هي المسيطرة على الجميع, حتى إن بعض من أبدوا رأيهم خالفوه في وسط المناقشةِ ذاتها؛ فبعضهم ولأول مرةٍ يفكّر!

أما الزعيم فصمت حتى أنهى الكل كلامَهم وحجَجهم؛ فهو يعلم أن القرار كاملا سيكون له، نظرًا لغياب أسطورةٍ أو خرافةٍ تخترعها العجوز تمنع القيام بالأمر, فأعلن أنه سيبعث من يكتشف مكان خروج الأقمار, لكن إعمالا للحذر أخبرهم الزعيم أنه سيسمح للرحلةِ أن تخرج على، أن تعود إن لم تجد بيت الشمس والقمر، قبل أن تنتهي يد الجزيرة.

وأخذ يشرح لأفراد القبيلة أنه يقصد بذلك الجزيرة نفسها في النهار، وانعكاس صورة الجزيرة على صفحة الماء في الليل.

تطوَّع (فو) أول شخص للمهمة, وأمر زعيم القبيلة ابنه الأكبر بأن يرافقه, وأن يكون في المقدمة، عندما يصلون كنوع من الاحترام, وأن يُبرز خُصلته الصفراء حتى تعلم الشمس والقمر أنه من سُلالة زعيم القبيلة، تماما كما يفعل هو كل يوم عندما يخرج من كوخه، ليبدي الاحترام لهما. كان عليهما أن يختارا اثنين من الإناث أيضا؛ فاختار الزعيم ابنةَ العجوز، لكن العجوز أصرت على الذهاب معهما بدلا من ابنتها ، وتطوعت زوجة (فو) للذهاب معه، فهي متحمسةٌ للرحلة، وإن كان ذلك لا يبدو واضحا عليها.

ابتسمت العجوز بخبثٍ لـ(فو)؛ إنها مؤيدةٌ للفكرة تماما, صحيح أنها لم تتخيل أن يكتشف (فو) اكتشافا خطيرا كهذا عندما كانت تراقبه, لكنها تحلّت بالحكمة لأن تتركه يعمل بدون تدخل منها؛ لكي تعارضه أولا بدون دليل أو خرافة, فتتحكم في دفّة المعارضة من البداية, فتكون هي

المعارض الأكبر، فأذا اقتنعت لن يقوى أحد على المعارضه بعدها, وهي تمثيلية هزلية تنطلي على العامة كثيرا!

أما (فو) فقد أسعده أنه انتصر, وحقّق هدفه في الذهاب للرحلة!

أعلم أنك كوّنت اعتقادا الآن عن (فو) أنه شخص ساذَج, لكن أريدك أن تعلم أن (فو) في فكرته هذه، لم يختلف كثيراً عن طريقة تفكير الأوروبيين المتقدمين جدا، بالنسبة له منذ عقود قليلة مضت، عندما ظنوا أنهم إذا عبروا البحر، سيجدون الهند في الناحية الأخرى منه, واستغرق الأمر سنوات كثيرة، بعد أن وصلوا لهذه الأرض، قبل أن يدركوا خطأهم, ناهيك عن فكرة أن الأوروبيين جهزوا أساطيل كاملة للذهاب إلى الهند من أجل تسهيل الحصول على التوابل.

بدأ (فو) في التفكير في خطوته القادمة؛ فعليه الآن أن يعد العدة، ويخطط لرحلته, وأن يتحمل غرور ابن زعيم القبيلة، الذي يظن أن أباه هو صاحب الاكتشاف. ولكنها كانت إلى حد ما مهمة سهلة؛ فقد تعوّد

التعامل معه منذ كانا صغاراً يحضران معا دروس العجوز ، فسنهما متقارب، ولكن ابن الزعيم أكبر منه يسيراً!

بدأ المشروع القومي من الصباح الباكر, ولم يَخْلُ الليل، من سيرك مصغّر, جلس (فو) مستمتعا وهو يرى أفراد القبيلة يختبرون نظريته، ويرى خيبة الأمل في عيون البعض، ويرى الاندهاش في عيون بعض آخر, فكّر في أنه كان يجب أن ينسب الاكتشاف إليه, لكن بماذا يفيده هذا النسب إذا كان سيقضي باقي عمره هنا, وربما قضى باقي عمره يحاول إثبات نظريته إذا واجهها الزعيم بالرفض, وأي نفع سيجلبه عليه الاكتشاف إذا لم يرحل ليكتشف ما وراء هذا العالم, على أي حال، لم يكن (فو) يحتمل المخاطرة قط.

اجتمعوا في الصباح الباكر, الأربعة المختارون، وزعيم القبيلة، واصطف خلفهم أفراد القبيلة يراقبون، فلم يكن لديهم شيء أهم ليفعلوه, وكان إحساس الإثارة شيئًا جديدا جدا عليهم.

وقف سو ابن الزعيم حائراً في ما يجب عليه أن يفعل, إلى أن اقترب منه (فو) ولقّنه فكرته، كما لقنه أبوه, أنّ عليهم أن يجمعوا جذوع الشجر، ويضموها إلى بعضها

ببعض الحبال التي يصنعونها من أوراق أشجار معينةٍ، كما يفعلون في أسقف منازلهم، كلَّفه ابن الزعيم بصوتٍ عالٍ، بما يجب عليه فعله، وقد بدا بعد ذلك مُمْتَنا لما فعله (فو)، ومستغربا أن (فو) لم يفعل ما دأب عليه، عندما كانوا صغاراً، في تحديه إلى أقصى حد آمن، أقصى حد لن يقلب الأمر بعده بينهما إلى مواجهة!

بدأ (فو) في تجميع الجذوع، صحيح أن (فو) لم يكن يعرف العدَّ، لكنه تعلم التناسب أثناء محاولته لمعرفة مكان كوخه من فوق الجبل، فأخذ يرصُّ جذع شجرة لكل فرد من المشاركين في المهمة، وبدأ هو، وسو، وزوجته، في ربطها بالحبال، خرجوا لتجربته أولا، (فو)، وسو، فقط؛ فكاد أن يغرق من كثرة الحمل؛ فعادا سريعًا إلى الشاطئ، فبدأ أفراد القبيلة يساعدونهما، بدؤوا يناسبون لكل شخص جذعين، واختاروا جذوعا أكبر هذه المرة، وجمعوا فروعًا لبعض الأشجار حتى يستخدموها في التجديف، خرجوا للتجرِبة مجددا، ونجحت هذه المرة، طفا الطَوْف الخشبيُّ جيدا، عادا إلى الشاطئ ليجربوا إذا كان سيحمل العجوز وزوجته "دي" أم لا، نجح الطَوْف في

الصمود, فعادوا الى الشاطئ, وركب الزعيم معهم وأخذوا جولةً في الخليج, ثم عادوا، وأعطاهم الزعيم مباركته لبدأ المهمة!

مائدة من القتلة والمحاربين!

أخبر أحدُ المساعدين العلماءَ أن الغداء اليوم سيكون على متن اليَخْتِ مع السيد آدم، فقد حادثهم ليخبرهم أنه سيزورهم اليوم، وطلب منهم أن يبلغوا العلماء.

هذه الزيارة ستكون بالتأكيد استراحة جيدةً لهم بعد يومين من العمل المتواصل، وإن كان أقل بكثير مما تعودوا عليه، فقد قام المساعدون الأشداء الذين أرسلهم آدم، بمعظم العمل، حيث فصلوا غطاء القبر أولا محافظين عليه بقدر المستطاع، ثم نزلوا إلى القبر، وقاموا برفع العظام التي وجدوها بالداخل، ولم تكن مصنوعة من الذهب بالتأكيد !

و لم يجدوا شيئًا يذكر غير ذلك، لا في داخل القبر، ولا في محيطه، سوى بعض الرسوم الهزيلة المرسومة على حوائط الكهوف المنتشرة في هذه المنطقة.

صعد العلماء أولا إلى اليخت، ثم تبعهم المساعدون، طلب أحد المساعدين دخول الحمام، وأرشده آدم بنفسه إلى مكانه، فقد كان باقي الطاقم منشغلا بتحضير الغداء، عاد آدم سريعا، وجلس بجانب العلماء، على مقدمةِ

اليخت وسألهم عن مصير رحلتهم؛ فأخبروه بما وجدوه، وكان هذا مخيِّبًا للآمال بالنسبة له!

سألهم إذا كان ما وجدوه أتاح لهم وضع نظريةٍ، عن ما حدث على هذه الجزيرة، أو عن ماهية القوى الخارقة لـ(فو)، وكررت الحياه لعبتها بتكرار ما حدث في (دارو) قديما مع تغير بسيط. فكما خرج العلم والخرافة من مكان واحد قديمًا ، كان على العلم أن يهتدي بالخرافات الآن؛ لأن الخرافات سبقته، فأصبح دور العلم غالبا هو دحض الخرافة, لأن انتصارها ليس مقبولا في أعين العلماء.

استمع آدم إلى كلمات العلماء عن الاكتشاف العادي من وجهة نظرهم إلى الآن, واستمع لخيبةِ أملهم في عظمة الاكتشاف، ثم دعاهم إلى الغداء، ودعا أيضا المساعدين وطاقم المركب, قال أنّه يحب دائما أن يكون على اتصال بمن يعملون معه في شركاته وأعماله؛ لأنه بحاجةٍ إلى هذا الاتصال أكثر منهم.

نظر آدم إلى المائدة المنصوبة أمامه، قبل أن يسأل: لماذا يهتم الإنسان بالتاريخ؟

بماذا سيفيدنا ما سنكتشفه هنا؟

وبماذا أفادنا التاريخ قبل ذلك؟

هل تعلمنا منه شيئًا؟

لم يساهم التاريخ إلا في تأجيج الصراعات قبل ذلك!

إن تاريخ الإنسان وأساطيره تكرّس للخوف كدافع للحياة، ولم يمنعنا هذا الخوف قط من مد أيدينا لعدونا التاريخيّ، إذا كانت لنا مصلحة في ذلك!

استطرد دون أن ينتظر ردا أو مشاركة: أعلم أن هناك عِبَرًا في التاريخ، يجب أن نتعلّمها، لكنّنا في جميع الأحوال لم نتعلم منها شيئا. نحن لا نختلف كثيرًا عن هذه المائدةِ التي أمامنا, فهذه مائدةٌ من المحاربين والقتلة؛ كل سمكةٍ أمامك أكلت أسماكا أصغر منها، وحاربت أسماكا أكبر منها, والروبيان كذلك، والاستاكوزا، وكل كائن بحريٍّ فعل ذلك!

هل لو كانت الأسماك تحكي تاريخًا؛ لاختلف صراع أحفادها؟

إن معظم الأسماك يتبع دورة في حياته، من يوم خُلق، وهو لم يتعلم التاريخ، إن تاريخنا مثل تاريخ هذه الكائنات، رحلة حياة وصراعات، لكننا أضفنا إليها عِبَرًا نعلم جيدا أننا لن نتعلم منها شيئا لنجمل صورتنا كبشر.

أخبره أحد المساعدين أن تخليد الأجداد، وتمجيدهم يعطي الأحفاد راحةً بأنهم في يوم ما سيخلدون ويمجدون أيضا.

وافقه عالمٌ بأن التاريخ بالفعل حاجةٌ إنسانية، لكن مع الوقت اختلفت هذه الحاجة؛ حيث إنها في البداية أهمية التاريخ لتجميع الصور المستخدمة في الاستدلال، فالاستدلال كان وما يزال اهتداءً لكلٍّ شامل من أجزاء متفرقة. أما بعد ذلك، فقد تحول التاريخ إلى رفاهية!

تدخل آدم مجددا في الحديث ليسأل العالم: ما تزال لم تجب عن سؤالي، لماذا نحتاج إلى التاريخ؟

ثم دبّ ملعقته في الحساء أمامه، وأخرج رأس سمكة، ورفعها وكأنه يريها للعالم، ليقول له: إن في هذه الرأس الصغيرة، اختزنت السمكة تاريخَها كله؛ أعداءها، وطريقة

أكلها، وأساليبها الدفاعية، وطريقة اقتناص الفرائس، والتزاوج، والرحلة التي عليها أن تقطعها لتضع بيضها في مياه دافئة؛ -وهي تبلغ في بعض الأحيان مسافة نقطعها نحن بالطائرة في ساعات-؛ أين تختزن الأسماك كل هذا؟

أطلق ضحكةً، قبل أن يكمل: في هذه الرأس!

أما نحن برأس أكبر منها بكثير؛ فنحتاج أن نتعلم كل شيء، نولد لنتعلم لغة البلد التي نعيش فيها ، وتاريخه، وكل شيء عنه.

تخيّل مثلا؛ طفلين توأمين ولدا معًا ثم تربى كل منهما في بلد مختلف عن الآخر. بل لنضيّق المقارنة، ونقول أن هذين الطفلين تربوا في بيتين متجاورين، ألن يكون هناك اختلاف بينهما؟

ضحكت إحدى فتيات طاقم الضيافة، وهي تقول: إذن فهذا السمك أفضل منا كثيرا؛ فله ذاكرةٌ مُدمَجةٌ بتاريخ مُدمَج!

ضحك آدم، وهو يضع يده على ظهرها قائلا: عزيزتي، إن هذه الأسماك تحمل ما لا يمكنها تغييره، ونحن نحمل ذلك أيضا ، لكن بصورة محدودة؛ نحن نحمل ذاكرة الجسد، رئتنا تعلم كيف تتنفس، وقلبنا يعلم كيف ينبض، وأعيننا تعلم كيف تتواءم مع الضوء، لكن لم نقتصر على هذه الذاكرة فقط؛ لأن الإنسان ولد ليبدع، ويفكر، ويغير.

ليس لنا ذاكرة مصمتة، لا يمكن التعديل فيها، بل لنا ذاكرةٌ نتحكم فيها، لقد خلقت كل المخلوقات في الكون لدور محدد، أما نحن فقد خلقنا لنختار دورنا وأعدائنا وعاداتنا وتقاليدنا. إن كم الاختلافات بين البشر، كفيلة بأن يكون كل إنسان فصيلة حية وقائمة بذاتها.

ألجمتْ حكمة آدم ألسنةَ العلماء، إلا أن أحدهم حاول استعادة دفة الأمور قائلا: أتعلم أننا لاحظنا شيئًا غريبًا هنا، أن النباتات على هذه الجزيرة تستجيب لدقِّ الأرجل بطريقة غريبةٍ، وكأنها تكررها، نعلم ذلك لأننا أحضرنا معنا آلات كشف الكذب، وهي آلات تستطيع رصد مشاعر النباتات أيضا.

ضحك آدم قائلا: إن آلات كشف الكذب لا تعلم الحقيقة من الكذب، إنها تقيس توتّر الإنسان عندما يكذب فقط،

وانفعالنا وتوترنا يختلف من شخص لآخر, لهذا يسألونك في بداية الاختبار أسئلةً يعلمون إجابتها المؤكدة, حتى يستطيعوا مقارنة انفعالاتك، وتحديد الصدق من الكذب, أما ما تفعله يا عزيزي باستخدام آلات كشف الكذب على النباتات، فهو قياس انفعال بدون مرجع, وهو ما لم تخترع أجهزة كشف الكذب لفعله!

تماما مثل البعثة الاستكشافية كلها, هل هناك يقين بأنك ستجمع الدلائلَ بصورة صحيحةٍ لتصل لتفسير ما حدث فعلا؟

سادت لحظةٌ من الصمت قبل أن يردف آدم: أنا لا أقلّل من شأن البعثة؛ فأنا أكثر المتحمّسين لها!

قالها ببرود غيرِ مقصود, ثم مدّ يده، وبدأ الكلُّ في الأكل، بدون أن يتبادلوا أي كلمةٍ أخرى سوى بعض المجاملات والأحاديث العامة, بعد الغداء أخذ آدم جولةً في الجزيرة, ثم رحل مع مغيب الشمس!

وقفوا على رمال الخليج يحيّون آدم الذي كان يحيّيهم من على ظهر اليَخْتِ، وعلى شفتيه كلمات نطقها، وكرّرها بصوت خافت:

أخشى أن تفسّروا خرافات الماضي، بخرافات جديدة، وتضيع الحقيقة بين خرافتين!

طَوْفٌ متعدد الأحلام!

قد يكون الطوف واحداً , لكن أحلام راكبيه متعددة!

قضى راكبو الطوف المختارون ليلتَهم، كلٌّ في حُلمه. نعرف كلنا نوايا (فو)، وقد انحصرت حتى الآن في ترك الجزيرة.

لم تكن لدى زوجة (فو) نوايا واضحة, فقط الحماس والإثارة.

واجتمع زعيم القبيلة مع ابنه في هذه الليلة, استغرب الاثنان من تصرف (فو)؛ فلطالما أوعز سو لأبيه أن (فو) يمثل تهديدا كبيراً لحكمهم؛ رد عليه أبوه: أعلم ذلك؛ ولذلك وضعتك أنت، لا أنا على متن هذا الطوف. قالها الزعيم بابتسامةٍ عريضةٍ، ثم أضاف أن (فو) لديه هدفاً لا نعلمه، لكن إذا كانٍ من الممكن أن نستفيد منه فلنفعل.

كان الهاجس الذي يجمع الاثنين هو إيجاد شرعيةٍ لحكم أسرتهم, فهم أكثر من يعلم أن مجد جد الزعيم لن يبقى، وأن الأسطورة التي اختلقوها لتفسير خُصلة الشعر

الصفراء لا تنطلي على أحد, بل إن أبا الزعيم نفسه، عندما منح زوجته لزعيم الغزاة، كان يبحث عن شرعيةٍ لنسله. نصح الزعيم ابنه بالحذر، وطلب منه أن يعود بمجد جديد لعائلتهم!

أما العجوز، فقد كانت الأغرب بين الجميع, لقد كانت تريد قصةً جديدةً، تحكيها للأطفال؛ فقد شغلت دور العجوز هذا، لزمن طويل، وأتى أطفال ورحل أطفال، وبقيت هي والحكايات ثابتتين، وجفت منابع الخرافات، ومثلت لها هذه الرحلة فرصةً جديدةً لتحكي حكايات عاشتها, لم تكن تحلم بأكثر من ذلك!

بدأت المهمة الاستكشافية مع أول ضوء من الفجر, الأمواجُ عاندتهم كثيراً قرب الشاطئ، لكنها كانت أقل عندا عندما توغلوا في البحر, وقف جميع أفراد القبيلةِ على الشاطئ ينظرون إليهم, كان (فو) و"دي" و"سو" يجدفون، والعجوز طبعا لا تشارك, عندما بدأ الموج يقل عناداً، رأى ابن الزعيم أن ينظر خلفه، ويبقى الخُصلة الصفراء اللعينة في مواجهة أفراد القبيلة, واصل (فو) و"دي" التجديف حتى أوقفهم سو؛ لأن يد الشمس اختفت مع انتصاف

النهار، وأصبحت الشمس فوق رؤسهم تماما. لكن (فو) أخبره أن الجزيرة لم تختفِ بعد، فأخذوا راحةً قصيرةً، ثم شارك سو في التجديف، فما دام لا يرى خُصلةَ أبيه، فلن يرى أبوه خُصلتَه.

لم يَبُحْ بذلك طبعًا؛ فعندما تختفي ميزتك الأهمّ في الحياة، لن تكشف ذلك بنفسك أبدا، وقف (فو) بين الحين والآخر ليرى ما هو أبعد، ولكن لم يجد شيئًا، دخل الليل والجزيرةُ قاربت على الاختفاء، حتى غابت عنهم الجزيرة؛ فأصدر ابن الزعيم قراره بالعودة حسب ما أمر به والده، حاول (فو) أن يماطل قدر المستطاع لكن لم يكن هناك شيء حوله يساعده، لم يروا أي شيء حولهم ليثبت به نظريته، أو حتى شيء يدفعه للمضيّ قدما في المغامرة.

وافق على العودة، وكله أمل في أن يقنع الزعيم بأن يمضوا المرة القادمة أكثر من ذلك، كان يُحس راحةً، فقد اختفى شكّه من جدوى قراره بنسبة كل شيء للزعيم وابنه، الآن هو لم يخسر شيئًا لأن الفشل ليس فشلَه، فمن نُسبت إليه الفكرة سينسب إليه الفشل، كان

مرتاحًا أيضًا لأن الزعيم سيدافع عن اكتشافه, وسيرسلُهم بالتأكيد في رحلةٍ أخرى, أراحه التفكير أن رحلته أول المهمات لكنها لن تكون الأخيرة.

لم تُبْدِ العجوز أي انفعال, فقد انشغلت منذ بداية الرحلة في النظر لكل شيء, إلى الجزيرة أولا , فهي لم ترها من بعيد من قبل, ثم إلى داخل البحر, حتى تملّك منها التعب, غالبًا من أثر الشمس رغم أنها أخذت فرعًا من الذي استخدموه للتجديف لتستظل به, أخذوا يجدّفون طوال الليل في طريق العودة؛ وبدؤوا يلمحون من بعيد طيفَ الجزيرة, فمن فرحتهم بالاكتشاف لم ينتظروا ليلة يكون فيها القمر بدرًا , ساعدتْهم الأمواج كثيرًا, لكن عندما وصلوا إلى قرب الجزيرة لم يستطيعوا أن يروا شيئًا, حتى مشاعل النار التي يبقونها خارج بيوتهم لم يروها, فناموا من فَرْطِ التّعب, إلا (فو) بقي ساهرًا رغم المجهود الكبير الذي بذله البارحة فلديه خطةٌ لينفذها.

أخذ (فو) يجدِّف بهدوء بعد نومهم ليبتعد قدر الإمكان عن الجزيرة, كان يريد أن يحدد مدى بعدهم عن بيت

الشمس والقمر، عندما تخرج الشمس من بيتِها، فقد فاته فعل ذلك عندما خرج القمر من بيته.

في الصباح كان (فو) قد استسلم للنوم, أفاقت العجوز الكسول أولا، وانتصبت مرة واحدة، وبسرعةٍ حتى كاد الطوف أن ينقلب, أخذت تفرك عينيها وتفتحهما، ثم صرخت بشدةٍ: الغزاةَ، الغزاةَ!

وأخذت تركلهم بأقدامها حتى يُفيقوا من نومهم؛ فتحوا عيونَهم بصعوبةٍ شديدةٍ لينظروا إلى مشهد لم يرَه أحدهم من قبل, أفاق (فو) و"دي" أولا، ثم تبعهما سو الذي بدتْ عليه الحيرة في ما يجب أن يفعل، عندما يصحو في العراء, لم يدرِ ماذا يفعل بخُصلةِ شعره الصفراء لكي تظهر أول شيء منه, والعجوز ما تزال تردِّد: الغزاة، الغزاةَ!

لم يفهم أحد ماذا تعني؛ فأشارت إلى الجزيرة: إنها مركب الغزاة!

استلّ (فو) و"سو" رمحيهما، ووقفا متأهّبين للقتال، إلا أن العجوز هدَّأتهما، وقالت أن الغزاة كانوا مسالمين،

ولم تمنع نفسها من أن تحكيَ لهم الحكاية مرةً أخرى؛ لأنه من الواضح أنهم نسوها، لكن (فو)، و"سو" ظلا شاهرَيْن رمحيهما؛ لأنهما لا يصدّقان العجوز؛ هم يصدقان أنها رأت الغزاةَ ومراكبهم، لكن لا يصدّقان كل القصة.

أدرك (فو) لحظتها أن هذا الصوت الذي سمعه هو صوت طبول الغزاة ، وأخبر سو بذلك؛ أخذا يراقبان قليلا ، فلم يروا أحدا، فقررا أن يدورا حول مركب الغزاةِ حتى يريا أحدهم.

أخذوا يجدّفون بسرعة، وعيونهم جميعا تمسح المركب بحثًا عن الغزاة، لكن لم يروا أحدا، إلى أن وجدوا أنفسهم أمام الخليج الذي خرجوا منه، وأفراد القبيلة متراصّون ينظرون إلى البحر بحثًا عنهم!

قفزت العجوز صارخةً، غير مصدقةٍ أن جزيرتها تشبه مراكب الغزاة. والحقيقة أن الجزيرة لا تشبه مراكب الغزاة، لكن العجوز عندما رأت المراكب كانت صغيرةً جدا. ومع الوقت، ومع حكاياتها عن الجزيرة التي تشبه صدفة السلحفاة المقلوبة انمحت الذاكرة الأصلية، وبقي ما حكته العجوز وزادت عليه خرافاتها، لم تكن العجوز المسكينة

سوى بشر يتعلق بذاكرة مجده القديم، وكلما تضاءل دورُه في الحياة زادت حكايات مجده في خياله , تماما كحكايات العجائز عن جمالهم وحكايات الفقراء عن غنى أجدادهم.

عندما وصلوا إلى الجزيرة، قفزت العجوز في الماء قبل أن يصل الطَوْف إلى الشاطئ, عندما اقتربت العجوزُ من أفراد القبيلة كانوا قد اصطفوا بغير وعيٍ بنفس ترتيبهم كما كانوا صغارا, نزل الكبارُ على ركبهم ليعودوا صغاراً مرة أخرى, أخذت تحكي عن شكل الجزيرة من الخارج، وكيف يبدو الخليج كحبل سُرّي ترتديه الجزيرة الخضراء في عنقها, وكيف أن الجزيرة تبدو مثل جزر الغزاة تماما, ينقصها فقط الأشرعة, العجوز الخاملة التي لا تقوى على التجديف كانت تتحرك كطفلةٍ، وهي تروي حكايتها.

في هذه اللحظة ولد عند جميع أفراد القبيلة بلا استثناء حُلم جديد, حُلم السفر مثل الغزاة, كان حُلمهم جميعًا من قبل, لكن أي حُلم ينطوي على مخاطرةٍ لا يستطيع الجميع تحملها , أما أن تخبر أحدا أن حلمك سيأتي إليك بدون أن تتحرك من مكانك, فهي فرصة قلما تأتي لأحد.

لم يعارض سو أو والدُه الزعيم أن تحكيَ العجوز القصة، فهي لا تمثل تهديداً لزعامتهم، كما أنها بحكايتها قد أمّنت لهم مخرجًا من فشل العثور على بيت الشمس والقمر!

وحده (فو) كان حائرًا؛ لقد أسفر الاكتشاف عن شيء آخر غير ما خطّط له من البداية، لكن هذه المرة لم يستطع أن يغالب النوم، عندما خرج من كوخه في الصباح لم يجد الطَوْف، اكتشف أن الزعيم أيضًا أراد أن يرى الجزيرة من الناحية الأخرى، وصحب معه العجوز لأنها أصرت على الذهاب، واثنين من الرجال الأَشُدّاء، ولم يصحب ابنه معه حتى لا يشعر (فو) بأنه أُقصي من الاكتشاف.

فقد اقتنع الزعيم أنه قد يحتاج إلى (فو) في مرحلةٍ لاحقةٍ، فرأى أن لا يقصيه أو ربما يتخلص منه الآن قبل أن يتأكد من عدم جدواه، ولأنه أحس أن (فو) ربما يكون قد خبّأ عنه شيئا من الاكتشاف واحتفظ به لنفسه.

مع ابتعاد الطَوْف عن الجزيرة رأى الزعيم قبيلتَه وجزيرته لأول مرةٍ!

قد يكون مدهشا ، كمّ الاختلاف الذي قد ترى عليه كل المسلَّمات التي بنيتَ حياتك عليها من منظور مختلف!

وقد استغرق الزعيم في هذا المنظور كثيرًا من الوقت، حتى غاب الخليج عن عيونهم، فتقمّصت العجوز دور المرشدة السياحية، وهي تحكي له أوجه الشبه بين جزيرتهم وجزر الغزاة، استرجع الزعيم في ذهنه حكايات أبيه وجده عن الغزاة، ووجد فيها ، إلى حد ما ، تقاربًا مع رواية العجوز، خاصةً أن جده كان الوحيد الذي اقترب من جزيرة الغزاة، حيث صحبه زعيم الغزاه في جولةٍ بطوف صغير حول جزيرةِ الغزاة، ثم ارتقوا إلى سطح جزيرة الغزاة سريعا ثم عادوا.

ما أن لمست أقدام العجوز رمالَ الجزيرة، حتى أخذت تضيف حكايات جديدة، وتفاصيل أكثر دقة عن الرحلة، واجتمع حولها كل أفراد القبيلة إلا (فو) الذي حاول أن يلحق بالزعيم ليتكلم معه، ولكن الزعيم دخل إلى كوخه مسرعًا، لقد كان المنظر بالنسبة له مهيبا، واحتاج أن يفكر قليلا ويستشير ابنه، قبل أن يعلن موقفه من فكرة

العجوز المجنونة, فقد اقترحت عليه أن يصنع أشرعةً للجزيرة يستطيعون بها التحرك، كما فعل الغزاة بجزيرتهم.

طلب منها أن تقول ما تشاء، ولكن لا تذيع ذلك الطلب، أو حتى تلمّح إليه حتى ينعم التفكير فيه, أحس أن الأحداث أسرع مما يمكنه استيعابه, فقد كان عليه أن يتعامل في أيام قليلةٍ مع مستجدات تفوق ما تعامل معه أسلافه كلهم مجتمعون.

فتح الزعيم صندوقا مغلقا مخفى بعنايه داخل الكوخ, وأخرج أوراقا عليها رسوم كان أبوه قد رسمها لجزرِ الغزاة، وأخذ يقارنها بشكل جزيرته, إنها بالفعل متقاربة, لكن فكرة العجوز تنطوي على مخاطر كثيرة عليه أن يضعها في الحسبان قبل الموافقة.

اقترب (فو) من العجوز فور إنهائها لقصتها الجديدة, فأسرّت له العجوز باقتراحها حتى دون أن يسألها؛ اندهش (فو) من تغيّر موقف العجوز منه ومن اكتشافه، لكنه تجاوز اندهاشه، فليس في عقله بل جسده كله خلية واحدة تنشغل بذلك, المهم الآن أن حُلمه لم يمت؛ سيرحل, سيكتشف العوالم الأخرى, لا يهمه وسيلة ذلك.

عرف (فو) الأَرَقَ كصديق جديد؛ فلم يغمض له جفن, كان الأرق ناتجًا عن الإثارة التي شهدها عندما طاف حول الجزيرة وبعيدا عنها.

صحيح أن (فو) يعيش على جزيرة, ولكنها كانت أول مرةٍ يرى فيها جزيرة. تردد الزعيم طويلا في الخروج, فأن كان قد أفلت البارحة ليعطي لنفسه فسحةً للتفكير, فأن هذا لن يكون ممكنًا اليوم, لم يحسم قراره بعد, لكنه كان يعلم أن العجوز لن تحفظ السر كثيرا, لذلك فمن الأفضل أن يوافق الآن والاكتشاف منسوب إليه, على أن يوافق بعد ذلك مجبرا تحت ضغط أفراد القبيلة, ولم يخب ظنُّه إذ كان (فو) والعجوز وباقي أفراد القبيلة مجتمعين أمام كوخه.

أخبرهم الزعيم بموافقته, وعلى الفور طلب بعض أفراد القبيلةِ أن يذهبوا إلى أعلى الجبل للبدء في إنشاء الشراع, أمر الزعيم (فو) و"سو" بالذهاب معهم, ولم تنتظر العجوز دعوةً أو أمرًا, كان عليهم بالطبع أن يحملوها أو يساعدوها في بعض المناطق, لكنها كانت أهم فرد في الرحلة؛ لأنها الوحيدة التي رأت شراع الغزاة.

قادهم (فو) إلى أعلى تَبَّةٍ من أقصر طريق، ودلهم على أكبر الشجر وبقي أن يجعلوا الشجر على هيئة شراع, اقترحوا في البداية أن يصنعوا الشراع من جذوع الأشجار, لكن التنفيذ كان مستحيلا, وأخبرتهم العجوز أن الشراع يتحرك، وجذوع الأشجار لن تفعل ذلك, فلجؤوا إلى أوراق الشجر الكبيرة, وخاطوها باللِحاء, وأخذهم الحماس لدرجة أنهم أنجزوا الشراع في نهار واحد!

في الليل جلسوا معًا على ضوء النار التي أشعلوها, قبل أن يصحبهم سو إلى المكان الذي اعتاد المجيء إليه عندما يصعد الجبل, أراه كهفًا صغيرًا اعتاد المكوث فيه, خارج الكهف مد سو يده، وأخبرهم أنه في هذا المكان تعوّد أن يرى النجوم أقرب, مدّ يده كأنه يحاول أن يلمس النجوم, لكن كانت النجوم دائما شبرًا واحدًا أبعد من يده, داخل الكهف أراهم بعض الرسوم التي نحتها على جدار الكهف, تفحّصها (فو) قبل أن تلمع عيناه، ويدرك أن سو حَلُم بالرحيل أيضا, عندما التقت عيناهما لم تكن لأول مرة متنافسةً بل جمعهم الحُلم الواحد, ثم أخذ (فو) سو والعجوز إلى التَّبَّة التي يرى منها القبيلة, علّمهم التناسب وأراهم بيته وسط

أصابعه, استطاعت العجوز أن تجد كوخَها بسهولة نسبة إلى موقعه من النار الكبيرة التي يشعلها أفرادُ القبيلة، وكذلك سو لأن كوخه يجاور كوخ أبيه, لكن تبادل المعلومات في حد ذاته كان علامةً جيدة.

أما العجوز فصحبتهم إلى مكان مكشوف، وأخبرتهم أنها كانت مارسَتْ الحب هنا مع زوجها مرتين, منحتها الشمسُ مرةً ابنتها ، ومنحتها في المرة الثانية عمراً جديداً يضاف إلى عمرها فأصبحت أكبر المعمّرين.

أخفت عنهم العجوز أنها كثيراً ما تختلس ثمار جوز الهند من عهرتها ، وتتناول سائل الحياة الذي بداخلها , وهذا في اعتقادها السبب الرئيسي في طول عمرها .

جلست العجوز على جِذع نخلة شبيهٍ بذلك الذي تجلس عليه على الشاطئ, وأخبرتهم أنها تعتقد أن النجوم هي أرواح فشلتْ، أو اختارت عدم العودة, ثم أشارت بيدِها إلى مكانٍ في السماء، وقالت أنها ستكون هنا, فهي تعتقد أن هذا النجم هو زوجها, فهي لم ترَ هذا النجم إلا بعد وفاةِ زوجها!

أما (فو) فوجد نفسه أمام عالم جديد لم يكتشفه من قبل، لم ينظر للسماء، وكيف يفعل ذلك من كان مهموماً بالأرض؟!

لكن هذا لم يمنعه من التخيُّل، تخيّل أن بيت الشمس والقمر، ليس فقط نهاية عالمه، بل ربما يكون سبيلاً للصعود لأعلى، هناك بجانب النجوم كما يعبر القمر كل ليلة.

أردف سو أن هذا قد يكون صحيحًا، فكما يفعل القرودُ على فروع الشجر، يمكننا أن نعتلي السماء نحن أيضا، ثم نتدلى لنرى بيوتنا من هناك.

في الصباح جرّب (فو) و"سو" أن يتدليا من شجرة، ورأوا الدنيا بالمقلوب لأول مرة، ورأوا قبيلتهم كما تراها النجوم.

عندما عادوا كانوا قد تغيروا جميعًا، تأثر كل منهم بالآخر، ومنحه جزءًا صغيرًا منه، واكتسب جزءا صغيرا من الآخرين في صحبته.

إنها أول وأكبر متلازمة في حياة البشر، متلازمة الصحبة، وهي شائعةٌ لدرجةِ اعتبارها قاعدة!

في الصباح كانوا أكثر تعاونًا, بنوا شراعَيْن آخرين قبل حلول الليل, مع الأسف لم يكن باقي الأشرعة واضحًا من الخليج، فذهب أحد الرجال ليدعوا أفراد القبيلة جميعا إلى الأعلى, رأوا الأشرعة، وأثنى الزعيم عليها ، ومع كل موجة كبيرة تقترب كانوا يعتقدون أن جزيرتهم تبتعد داخل الماء أكثر, في الليل أقاموا احتفالاً صاخبًا, احتفالا بمغادرةِ الجزيرة، -وهم ما يزالون عليها- وباختراعهم المبهر!

في الصباح، طلب الزعيم من الجميع النزول, وطلب من (فو) و"سو" والعجوز أن يبقوا هنا ليراقبوا, ويعلموهم عندما يروا جزرًا أخرى تقترب.

لأيام بعد ذلك، لم يجدوا شيئًا ، لكنهم أصبحوا أكثر اقترابا, تشاركوا الملاحظات, والحديث عن الأحلام والأمنيات, اكتشفوا في ما وراء الكلام كثيرًا مما أخفاه كل منهم بعناية.

بقوا فترةً طويلةً, وتولّى (فو) و"سو" استبدال الأوراق الذابلة من الأشرعة, حتى أتى موسم الأسماك مرة أخرى, تحدّث بعض أفراد القبيلة أن الموسم قد أتى مبكرا،

وقبل موعده بكثير لأن الجزيرة تحركت, وأرسل الزعيم يطلب حضور (فو) و"سو" والعجوز, فالقبيلة تحتاج الآن إلى الأيدي العاملة.

وكما بدا واضحًا الآن، لقد أفلح (فو) في اختيار الوقت الذي طرح فيه فكرته!

طلب (فو) من الزعيم الإذن باستخدام الطَوْف في الصيد؛ وأذن له الزعيم على أن يرتبط بنفس ضوابط الرحلة الأولى, عرض سو على (فو) مرافقَته في الرحلة, طلب سو ذلك منه قبل أن يطلبه من أبيه, وكان هذا تحولاً رائعًا من أنداد لحلفاء في حلم واحد.

وافق الزعيم، وخرجا لأول صيد بالطوف, وعادا محملين بأسماك كبيرة، تكفي القبيلة كلها لأيام طويلة, طلب رجال من القبيلة الإذن بصنع طَوْفٍ جديد لهما، ثم طلب آخرون ذلك، حتى أصبح لكل رجلين في القبيلة طوف. فقدَ بعضُ الرجال رماحهم في الصيد, بعضهم أفلتها، والبعض الآخر رحل به السمك, فاخترع أحدهم اختراعًا جديداً, قام بربط الرمح بحبلٍ في يده ليحافظ عليه, فأضاف ذلك طولاً للرمح حتى يستطيع أن يقذفه لمسافة أطول، ويعيده إليه, ثم

تطور الأمر حينما أبصر أحد الرجال حيوانا يمشي على أرض البحر فنزل لاصطياده بيده, وفي غمرة هذه الاكتشافات نسي الكل الأشرعة التي نصبوها على قمة الجبل, إلا (فو) فكان يصعد أسبوعيا ليرمّم الأوراق, إلى أن خطر له ذات يوم أن يصنع شراعا للطَوْف, فصنعه من أوراق شجرٍ كبيرة، ولم يترك بينها أي مساحةٍ لتسرب الهواء, وبدا الطوف يتحرك في المياه أسرع.

مع كثرة الاسماك فقد الجميع حماسَهم للمغامرة، ومغادرة الجزيرة, واطمأن الزعيم على حكمه, ففي وجود وفرةٍ من الأسماك لن يحدث أي نزاع, فأمر بأزالة الأشرعة, لأنه رأى أن الجزيرة تحركت بالفعل إلى موقع أفضل مليءٍ بالأسماك، ووافقه الكل على ذلك, ونسجت العجوز التي أصبحت أحد أصحاب الفضل في ذلك الاكتشاف حكايات وأساطير خرافيةً كثيرةً!

وحده (فو) أصبح عابسًا دائمًا, لقد حصل الجميع على مرادهم, حتى سو لم يعد يشاركه الحُلم, فلقد غيَّر الواقع الجديد من تفكيره كثيرا, هو الآن سيكون زعيما ذا شرعية, شرعية أبيه، وشرعية مشاركته في الرحلة

والاكتشاف, وبقي (فو) الوحيد الذي وهب علمه وذكاءه وقوة ملاحظته إلى غيره آملا في مكسب من وراء ذلك, ولم يحصل على أي مكسب, لذا فقد عزم على المغادرة, لن يبقى هنا, سيذهب ليطارد حلمه!

استيقظ (فو) مبكرًا جدًا, قبل أن تطلع الشمس بكثير, أخذ الكثير من السمك المملّح، والمياه، ثم تسلّل إلى الطوف الذي صنعه.

قرّر (فو) أن يذهب إلى حيث أراد من البداية, إلى بيت الشمس والقمر, إلى أي مكان آخر, أراد أن يرى العالم, ولم ينتظر إذنا من أحد هذه المرة.

أوقفته يدٌ تُربّتُ على كتفه, إنه سو يريد أن يذهب معه, لقد خالف توقعات (فو) ولم يستكن للمجد الزائف, سو يريد أن يبني مجداً حقيقيا يعتز به. اعتلى الاثنان الطوف، وبدآ في التجديف.

من بعيد خلفهم اختفت يد الجزيرة، وتلقّفتهم يد المجهول.

ترك (فو) وسو القبيلة كلها خلفهما، ليس الأشخاص فحسب، بل المنظومة بكاملها, لم يعد لأي من التقاليد معنى, حتى علاقتهما القديمة تركاها, تشاركا التجديف، وتشاركا الملاحظات، ونسي سو خُصلته الصفراء تماما. في الليل كانت ملاحظة (فو) وسو، أن بيت الشمس والقمر بعيدٌ عنهما دائما بنفس المسافة, وفي النهار لم يجدا شيئا يلاحظانه, لم يكن حولهما سوى بحر لا ينتهي, إلى أن أعياهما التعب , فارتدى كل منهما على رأسه ورقة من أوراق الشجر, ارتداها سو أولا , حتى قبل أن يصيبه التعب.

ففي قرارة نفسه أراد أن يخفي خصلتَه الصفراء، ليدخل العالم الجديد بشخصه هو، ليصنع مجداً حقيقيا، وليس مجداً زائفًا.

وتبعه (فو) ليتقي حرارةَ الشمس, نفذ منهم الماء والطعام سريعًا, فمجهود التجديف دفعهم للأكل أكثر من المعدّل الطبيعي, لم يمرّ وقت طويل حتى فقد الاثنان الوعي.

في فَوْرة غضب مفاجئة أخذ الزعيم يصيح أن ابنه مات، وأن (فو) أيضا مات، أمر العجوز بأن تلقي حبليهما السِّرِّيين في البحر، ثم دخل إلى كوخه منكسراً.

انحنى شعاع الشمس ليتجمع و ينعكس على خصلةِ شعر الزعيم الصفراء، وهو يخرج من كوخه, أو هكذا تخيّل الزعيم ما يحدث عند خروجه كل يوم من كوخه.

حيًّا الشمس بايماءة من رأسه, وجلس على مقعده خارج الكوخ يراقب البحر, تعوّد على هذه الجلسة طيلة الأيام الماضية، منذ ذهب ابنه مع (فو) لاستطلاع بيت الشمس والقمر, لم ينقطع عنها سوى يومين بعد فَوْرة الغضب, كان سبب غِضبته أن ظنّه خاب كثيرا، لأن ابنه ذهب بدون إذنه, لكنه لم يستغرب ذلك من (فو)، بل توقّعه عندما رآه ينظر للشراع دائما.

رأى حسرة (فو) في عينيه، ولم يشأ أن يواسيه, فمن مصلحته أن يذهب (فو) إلى بيت الشمس والقمر, ومن الأفضل أن لا يعود أبدا, لكن ذهاب ابنه، فطَر قلبه, أخذ يراقب البحر كمجنون, يهب واقفًا إذا أتت موجة عالية كأنه يخشى أن تحجب ابنه, حاول أن يبقى عينه على الشاطئ كله, إلا ذلك الطرف الذي تشغله العجوز والأطفال.

لم تكن العجوز تجلس على الشجرة المنحنية كعادتها ، بل كانت تتحرك وتقفز وتقوم بحركاتها البهلوانية.

ضاق ذَرْعًا بتصرفاتها أكثر من مرةٍ، وعدم مراعاتها لحزنه ووبّخها لذلك، لكن هيهات أن تنتهي العجوز التي دبّت فيها الروح مرةً أخرى، ووُلدت كطفلةٍ صغيرةٍ.

في أحد الأيام انهمر المطر غزيرا ومفاجئًا، أخذت العجوز تدور حول نفسها وهي فاتحة ذراعيها، وفاغرة فمها للماء، فمن معتقدات القبيلة أن المطر هو ماء السماء، ولذلك عليهم أن يستزيدوا منه لأنه هو الذي يجعل الإنسان ينمو، إلا إذا صاحبه رعدٌ وبرق، فيكون في هذه الحالة لعنةً عليهم أن يجتنبوها، لم يمهلهم البرق كثيرًا فأتى مفاجئا ليضرب بَقَرةً فيرديها ميتةً في الحال؛ انتفضت العجوز وأوقفت الدوران وصرخت بصوت أعلى من الرعد: أحدهما قادم، أحدهما سيعيش!

ركض الصبيةُ سريعا إلى أكواخهم، ونهت العجوز أي شخص عن إخفاء الحيوانات، صرخت فيهم: اتركوها ليستبدلوا روحًا أخرى.

نحتاج روحًا أخرى!, خاطبت السماء هذه المرة.

ثم أخذت تدور حول نفسها ، وهي منحنيةٌ للخلف, لتسمح بأكثر مساحة تتعرض للماء, وتبعتها زوجة (فو) بنفس الحركة, ثم تبعها نساء أخريات, لسبب غريب أحسوا نشوةً. لكن العجوز لم تكن تقصد بهذه الحركة سوى أن تعرض نفسها للرعد, لم تكن تريد الانتحار, كانت تريد أن تعطيهم حياةً من حيواناتها التي تقتنع أنها كُثُر.

عندما هدأت العاصفة، كانت العجوز ما تزال تصرخ: أحدهما سيعيش, أحدهما سيعيش!

فهم الجميع من ذلك أن أحد الغائبين؛ (فو) وسو سيعيش, سيتولى البرق منحَه رُوحَ البقرة ليعيش.

لم يتجرَّأ الزعيم بأن يقوم بأعطاء أمر للبرق بمنح الرُوحِ لابنه الذي أعلن موته, أَسَرِّها كرغبة في نفسه, لكن لم يجرؤ على إعلانها ، فليس هناك مغزى من فقد الابن والهيبة معا.

لم يمر يومان على ذلك حتى قذفت المياه بالطوف إلى قرب الجزيرة, وتسابق الرجال جميعا لإحضاره؛ وجدوا عليه (فو) وسو فاقدين الوعي, في حالة قريبة للموت.

اقترب الزعيم من ابنه، وأخذ يده ليضعها على أذنه فلم يسمع شيئا, لم تنتظر زوجة (فو) واقتربت من زوجها فلم تسمع شيئًا هي الأخرى.

قبل أن تتمكّن نظرة الأسى على وجوههم من أفراد القبيلة صرخت العجوز بحزم: أحدهما سيعيش!

نُقل الاثنان إلى كوخ العجوز, عندما اختَلَت بهما تفحصت أجسادهما؛ لترى من منهما ضربه البرق ليمنحه الرُّوح التي أخذها من البقرة، فلم تجد في جسدهما أثرًا, جلست بجانبهما تراقب بطونهما, لم تجد حركةً تذكر.

وضعت يدها على مكان روح القمر التي بداخلهما, ثم أخذت بكلتا يديها تضغط على بطنهما، ثم على مكان روح القمر.

حاولت العجوز أن تطرد روح الموت منهما!

انتفض جسد (فو)، وتقيأ ماء كثيرا لكن بقي فاقداً للوعي، رأت حركةً خفيفةً منتظمةً تخرج من بطنه الآن، أجلسته نصف جِلسة، وسكبت في فمه عصيراً من ثمرة جوز الهند، ثم تركته والتفتت إلى سو، أخذت تفعل الشيءَ نفسه معه؛ لكن لم يستجيب.

خرجت إلى القبيلة لتعلن صدق نبوءتها، لقد عاد أحدهما، لقد عاد (فو)!

استيقظ (فو) اليوم التالي، وسقته العجوز جرعة أخرى من ثمرة الحياة، خرج (فو) من الكهف ورأى جميع من في الجزيرة ورقة الشجر التي يرتديها على رأسه تخرج من الكوخ أولا، لم ينظر (فو) إلى أحد من القبيلة أولا، بل نظر إلى أعلى، إلى الشراع القائم على الجبل ليجده أصبح خاوياً من الأوراق، مجرد شجرة مجردة من الفروع والأغصان تماماً، كحُلمه!

لم يخلع (فو) ورقة الشجر من على رأسه، ولم تذبل هذه الورقة قط. وأبقى الزعيم ابنه أياما في كوخه قبل أن يسمح بدفنه؛ فلقد قال أحد الرجال أن البقرة التي

ضربها البرق كانت كبيرةً، وربما تكون منحت الحياة للاثنين.

كان الزعيم على استعداد لتقبل أي فكرة، ولم تكن الفكرة سخيفة بالنسبة له، كما تبدو لنا. استسلم الزعيم لفكرة موت ابنه بعد أيام، وأخذ يصب لعناته على البرق, لأنه أكل باقي روح البقرة ولم يعطها لابنه.

جلس (فو) كثيرا بجانب سو, وجلست العجوز، وأخذت تُهَمْهِمُ كثيرا، وطلبت من (فو) أن يتحدث إلى سو مثلها, في داخل نفسه بدون فتح فمه, لأن هذه هي لغة الموتى.

عندما نظر إليها (فو) باستغراب؛ أردفت مفسرة: إن روح الحياة قد ذهبت، لكن روح الموت حلّت في الجسد.

تقبَّل (فو) الفكرة بسرعة. فمن لم يدرك حدود الموجود، لن يدرك بالضرورة إمكانية غيابه.

لم يحتمل الزعيم رحيلَ ابنه, فلم تمر سوى أسابيع قليلة حتى لحقه, مات على كرسيه, استغرق الأمر نهاراً كاملاً حتى يكتشفوا وفاتَه, فقد تعوّدوا على جلسته المتخشّبة, حتى أنهم لم ينجحوا في فرد جسمه, فدفنوه جالسا, منتظراً ابنه!

أثناء جلوسه المتخشّب لم يعِرْ الزعيم اهتماماً لأحد, ولم يحاول أحد أن يعترض خط بصره, ذهب الجميع بمشاكلهم إلى العجوز, التي أحالتهم بهدوء إلى (فو).

أيام قليلة هي لكن تداول السلطة غالبا يحدث هكذا, همستْ العجوز في أذن (فو): إن قدرتك على حل المشاكل لن تثبت سلطتك, فهذا يثبت الحكمة فقط, لكن انصياع الناس لحكمك هو ما يعني تقبلهم لسلطتك, وعليك أن تكون ذكيا كفاية في هذه الأيام لتدرك ما يريده الناس أن يسمعوه منك, فلتؤذِ من يريده الناس أن يؤذَى، ولترحم من يريدون أن تناله الرحمة!

وانصاع (فو) لهذه النصيحة, فحكم بما أيقن أنه ظُلم، حتى يصل إلى مكانة تسمح له بأقرار العدل. -هكذا ظنّ-، حتى وقعِ أسيرا لرغبات الرعية, وهو أسْرٌ لا ينجو منه حاكم خالفَ ضميره.

استغلت العجوز فترة الانتظار قبل دفن الزعيم.

أخذت تتحدث عن (فو)، وأنه الأكثر تأهيلا ليكون الزعيم، فهو صاحب فكرة الشراع التي جلبت الأسماك للجزيرة.

وهو أيضا المختار الذي منحه البرق حياةً جديدةً, نصفها كان يجب أن يذهب إلى سو، وهذا يعني أنه يحمل من روح الزعيم أيضا, هكذا أنشأت العجوز ذلك الرابط الواهي بين نظامين أحدهما يأفل، والآخر يشرق من رحمه, فاقترحت على (فو) أن يقص خُصلة شعر الزعيم الصفراء، ويضعها مكان، أو بجانب ورقة الشجر التي يرتديها, لكن (فو) علم أن أوقات تداول السلطة هي أفضل وقت لفرض شرعيةٍ جديدةٍ, لا لشيءٍ سوى أن الناس تتوقع ذلك، وبهذا يكونون من داخلهم أكثر تقبلا له.

إلا أنه تقبل كلام العجوز عن نصف روح سو التي تحوم بداخله, لأنه يمكن محو ذلك, لكن الورقة التي لا تذبل يجب أن تحل محل الخصلة كشرعيةٍ جديدةٍ, لكنه في النهاية، وكنوع من المواءمة حَرَصَ على أن تمسّ ورقة الشجر الخُصلة الصفراء، وهو ينحني ليودع الزعيم.

حافظ (فو) أثناء مراسم الدفن على هَيبةِ منصب الزعيم, فهذا المشهد بمثابة إعلان أنه لن يفرط في نفس الهَيبة.

أما الطبيعة فقد أقامت مراسمَها الخاصة لتتويج (فو), انهمر المطر وبدأت العجوز في رقصة عودة الروح, تلك التي فعلتها حتى تهب السماء روحها لـ(فو) ورفيقه, وتبعها الجميع رجالاً ونساءً, الكل فردوا أذرعهم وداروا حول أنفسهم, نفس الرقصة منحت الرجال إحساسا بالقوة، ومنحت النساء إحساسا بالسعادة, كلاهما وجد ما مبتغاه!

رددت العجوز اسم (فو) كثيراً أثناء الرقص, الذي هدأت وتيرته مع هدوء المطر, وبدأت تدبّ الأرض وهي تدور، وتصيح باسم (فو). من وسط الجموع الراقصة تقدمت زوجة سو, تلك المرأة التي لم يكن لها قط دور يذكر، وأمسكت بيد (فو)، وسحبته وراءها إلى كوخها, مطالِبةً بنصف روح زوجها التي تسكن جسد (فو)!

الموج يعرف طريقَ الشاطئ دائما !

تلخصت كل ملاحظاته، بعد دورانه حول الجزيرة في هذه الجملة!

سمعتها منه العجوزُ باهتمام, اهتمام سيطرَ عليها منذ صارحها بأنه ذاهبٌ لاستكشاف الجزيرة كلها, لأنها رأت من وراء هذا الاهتمام إصرارا على الحُلم, لمحت في عينيه جذوة لا تنطفئ!

وقف مواجهًا الخليج قبل أن يكمل: وإذا كان الموج يأتي دائما إلى هنا ، فأنه حتما يأتي من هناك.

- تقصد من العالم المختبئ؟

- نعم, إن هذا الموج هو وسيلته للدفاع عن نفسه، وصدنا عن استكشافه, إنه الحاجز الذي يفرضه علينا العالم المختبئ, تماما كما يصدنا الجبل بارتفاعه, ويُرهقنا في علوّه حتى لا نصعد.

- هل ستوجّه الجزيرة إلى هناك إذن؟

- لا, بل سأذهب أنا, فمهما تحركت الجزيرةُ، يجد الموج طريقه إليها, لكن هناك بعيدا في المياه ينقطع الموج, لقد رأيت ذلك بنفسي, عندما ذهبتُ مع سو، وعندما أنظر إلى البحر من فوق الجبل.

- ومتى ستذهب؟

- سأذهب عندما يكبر الموج, فهذا حتما دليل على أن هناك شيئًا يحدث، لا يريدنا العالم المختبئ أن نكتشفه!

- هذا صحيح, في أوقات العواصف, يختلف لون البحر عن لونه العادي!

- حتما إن هناك شيئا يحدث، ولا يريد أن نكتشفه.

- ولمن ستترك القبيلة؟ أنت لا تتوقّع أن تترك الناس بدون حاكم, بدون سلطة, فراغ السلطة أكثر الأشياء إخافةً للعامة!

- سأتركها لزوجتي!

- أي منهما, الأولى أم الثانية؟

- الأولى.

- لأنك لا تأتمن الثانية؟

- بل لأني أخاف منها, هي ليست بالساذجة التي نتصورها , إنها فقط توفر تحركاتها للأوقات المهمة, أتعلمين أنها رفضت أن ألمسها عندما أخذتني من يدي للكوخ يوم تنصيبي زعيما .

- ولماذا أخذتك إذن؟

- لتعلن عن حقها فقط, أعتقد أنها كانت تتوقّع مقاومة من زوجتي, فلم تشأ أن تخسر شيئا قبل أن تتأكد من تحقيق ما أرادت.

- لعلها أرادت فقط أن تبقى في الكوخ, ثاني أكثر كوخ مميز, أو أرادت أن تريدها أنت.

- ربما , لكن أنا لا أأتمن شخصا لا أرى نواياه على وجهه أو على لسانه!

أبحر (فو) في وقت الأمواج العارمة, في وسط الموج الهائج احتضنت (فو) موجة كبيرة, لثوان بدت له دهرًا انعزل عن كل شيء, رأى عالمًا مختبئًا جديدًا يحتوي عليه هو وقاربه فقط, رأى الماء يحيطه من كل الجهات, لأول

مرة يرى الماء فوقه, لأول مرة يرى موج السماء قريبا منه هكذا, انقضّت عليه الموجة مرة أخرى، واعتصرته بين جناحيها, ارتطم الطَوْف برأسه فأفقده الوعي!

تسابق الرجال لإحضاره عندما حمله الموج فاقداً للوعي إلى قرب الشاطئ, أرادت العجوز أن تفعل مثلما فعلت من قبل لكن الوهَن كان قد أصاب كل أعضائها, تطوع أحد الرجال للمهمة وأخذ يضرب على صدر (فو), توقف الرجل عن الضرب عندما بدأ (فو) في فتح عينيه.

رأى (فو) أشكالا لا يستطيع تمييزها, لكنه رأى رجلا بهيئة تشبه هيئتَه، يجسم على صدره, إنها روحه, - ظن (فو) ذلك، وفرح لأنه رأى روحه لأول مرة-, تأكد أنه مستلقٍ على ظهره, أغمض عينيه كأنه ينام فهكذا تعود الروح إلى الجسد, قام الرجل من على صدر (فو), وفتح (فو) عينيه ليجد أن روحه لم تعد موجودة, إذن فقد عادت إلى جسده كاملة, أبقى عينيه مفتوحةً ليبصر من حوله بالتدريج, أيقن (فو) أنه مات نصف ميتة مرتين الآن, رأى روحه في إحداهما, أيقن أن روحه ما تزال روحه, أو اتخذت من جديد شكل روحه,

وليس شكل بقرة، كما تخيل أنّها ستكون, أيقن لأيام كثيرة بعدها أن الروح تتشكل بالجسم الذي تحل فيه.

الآن عرف أن عالمه المختبئ هو كرة من الماء يختبئ خلفها عالم مختبئ, صعد إلى الجبل, في وقت العواصف أيضا هذه المرة, عزم على تكرار ما حدث بالموجة, ولكن هذه المرة في عالمه, أراد أن يطبق السماء على الأرض كما حدث في الموجة, فالاثنان بالنسبة له سيّان, الموجة كانت ماء تحته وفوقه, وعالمه الآن، من وجهة نظره، ماء تحته، وماء فوقه أيضا, وهناك موج في البحر, وهناك موج في السماء أيضا، ولكنه يتحرك ببطء, وكلاهما من ماء, إلا أن ماء السماء طعمه جيد!

ذهب (فو) هذه المرة إلى قمةٍ أعلى من القمةِ المسطّحة التي اعتاد الذهاب إليها, أراد أن يكون في أعلى نقطةٍ في الجزيرة, ربط سهمه في رسغه وأخذ يصوّب إلى السماء, أراد أن يفجّر الفقاعة التي فوقه, أملا في أن يحدث لها ما حدث للموجة؛ فتنبجس، ويظهر العالم المختبئ مرة واحدة!

صوّبَ كثيرا ولكن لم يصل, بعد تصويبة قويةٍ نزل المطر, صوّب كثيرا بعدها, أقوى, أقوى, قفز وصوب, انحنى ثم قفز وصوب أقوى, ولكن بقي مطر فقط هو الذي ينزل, لم ينجح في إصابة السماء إصابةً بالغة, لم ييأس ولكن لم يجد ما يدعو للتفاؤل, حتى ألقت إليه السماء حبالَها, نعم فحتماً هذا البرق هو حبال تأتي من السماء، وتصل إلى الأرض.

حمقى! علّمونا أن نتجنّبها, بدلا من أن أصطاد أحدها, ولكن البرق يميت, أو يحيي، ولكن في صورة أخرى, البقرة صارت أنا, تغيّرت روحها فلماذا لا أتغير أنا أيضا, إذا كان علي أن أتغير حتى أعبر للعالم المختبئ فليس لديّ مانع, سأتحول إلى شخص آخر، وأنسى ما كنتُه من قبل.

سأدهن جلدي إن استطعت بنفس لون جلد الغزاة, سأتحدث لغتهَم, المهم أن أعبر إلى العالم المختبئ, لقد حدث هذا لي بالفعل, خرجت روحي نصف خروج عندما كنت على وشك الذهاب إلى هناك, وسأتخلّص من نصف روحي الآخر إن كان هذا لازماً لأكون فرداً من العالم المختبئ, زادت الفكرة من حماسه فأخذ يجري وراء البرق

باقي الليلة, أراد أن يتشبّث بالبرق فينقله إلى العالم المختبئ، أو يجذب هو السماء إلى الأرض فيأتي بالعالم المختبئ إلى هنا!

عندما انتهت العاصفة صعد إلى الشجرة, لم يفعل ذلك منذ فعلها مع سو, تدلّى بالمقلوب، ونظر إلى قريته، ثم نظر للأعلى, نظر للأعلى وهو مقلوب, تراءت له السماء كبحرٍ صافٍ بدون أمواج, كيف لم يرَ ذلك من قبل؟! كيف لم يرَ الموجة الكبيرة التي تحيط بعالمه؟! عليه أن يسقط هذه السماء!

حتما يجب أن يفعل. لم يُطلع أحداً على فكرته سوى العجوز, وطلب منها أن تترك الحيوانات في الخارج وقت العواصف, لعل البرق يخطف إحداها, ساعتها وكخطة بديلة سيكون عليه أن ينتظر أول حمل ليستجوب الطفل، بعد أن يكبر عما فعله في العالم المختبئ!

ولعواصف كثيرة تالية، لم ينجح (فو) في الإمساك بتلابيب البرق!

أثبت (فو) منذ أول لحظة أنه زعيمٌ بالفطرة، فتواضع حين كان التواضع يرفعه, وتعالى حين كان التعالي واجبًا؛ لانَ حين كان في اللين قوة, وقوي حين كان في القوة لين!

إلا أن موهبتَه في الزعامة تجلّت في أول موسم لندرة الأسماك, فقد تخلى طواعية عن سلطة الحاكم الفرد الذي يفعل كل شيء، وينسب إليه كل شيء, ليشرك الجميع في مجد الجزيرة!

لذلك فقد اقترح (فو) على الرجال جميعًا الصعود معه إلى أعلى قمة الجبل ليرمّموا الشراع, حتى تتحرك الجزيرة إلى مكان أفضل، ولا يطول موسم الندرة.

كان من الممكن طبعا أن يفعل (فو) ذلك بنفسه، لكنه أراد أن يشرك الجميعَ في النصر، حتى يصبح لكل منهم حكايته التي يرويها ، وليحس كل منهم أن له دورًا في رخاء قبيلته.

وبمرور الوقت أصبح هذا الطقس يشبه مراسم الحج السنوي؛ لذلك فأن (فو) أمر النساء والاطفال بالصعود

فور أن ينتهي ترميم الشراع, فيقضي الكل ليله في طقوس احتفالية.

تبرّعت العجوز باختراعها, وبعد ذلك ينزل الجميع إلى الخليج، ويبقى هو والعجوز فقط حتى يطمئنا لحسن سير الجزيرة!

وصادف (فو) في إحدى مرات مكوثه هناك، ذلك الحيوان الغريب الذي قاده لكشفه العظيم, فاصطاده بسرعة!

لم يكن يريد أن يكشف هذا الحيوان أي سر لغيره.

كان غرض (فو) الحقيقيّ، من بقاء العجوز هو الاستماع إليها, فهي كانت تعلم الكثير عن العلاقات بين أفراد القبيلة.

ولم يكن في وسع (فو) أن يستمع إليها كل يوم أو أسبوع أو شهر, حتى لا يظهر بمظهر المنقاد تحت توجيهها, لذلك فقد كانت هذه المهلة قبل نزولهم للخليج تفيده جدا في معرفة ما لم تقدر عينه على ملاحظته.

بالطبع فأن (فو) اهتم أكثر بمعرفة طريقة العجوز في الملاحظة, وطبّق ما تعلمه منها كل مرة.

فهو لم ينسَ قط أنها كانت الوحيدة التي لاحظت اكتشافه، وتحلت بالحكمة لتتركه يكمله وحده, ولم ينس أيضا حكمتها في تمثيل المعارضة, وأنها رَعَتْ تداول السلطة إليه كذلك.

أما العجوز فكانت تقضي أوقاتًا كثيرةً تتحدث إلى ذلك النجم الذي تحسبه زوجها، وشاركها (فو) مرة عندما طلبت منه أن يجلس معها ويوجهوا رسالةً للنجم معا.

طلب (فو) من النجم أن يحكي عنه لمن سيأتون بعده، ثم أمال رأسه للأرض، وطلب منها أن تحكي عنه أيضا.

لم يفكر (فو) في إطلاق اسم على جزيرته حينها, لكن الجزيره تمنّت ذلك حقا!

بعث جديد!

أحس (فو) مع بداية شيخوخته، الحنينَ إلى مجده، أو أن حياته أوشكت على الانتهاء، دون أن يصل إلى حُلمه, انتابه إحساس أنه وصل ولم يصل, فوقف في نقطةٍ من حياته ليستلهم كل الآمال الضائعة، ويستمد منها القوةَ لتحليق أخير!

ظلّتْ تلك الحاجة تلِحُّ في عقله حتى حدث في أحد الأيام أن هبطت ناموسةٌ على صدره، وهو مستلقٍ على الشاطئ, تركها قليلاً ليراها أمام عينيه تمتلأ من دمه, كان الدم واضحًا وهو يخرج منه إلى وعاء تخزينها, حاول أن يضربها لكنها طارت بسرعة, وسرعان ما أوقع بأخرى بعد عدة محاولات!

كان يعلم الكثير عن الدم, لكن انتقاله هكذا أمام عينيه كان شيئًا جديدًا, وجديرًا بالملاحظة أيضا.

أطال في رقدته كثيرًا في هذه الملاحظة, أوجعه جسده وهو يقوم, فذهب إلى العجوز أولا ليأكل بعض الثمار الحمراء

لتعويض الدم الذي فقده, فقد تصور أن هذا سبب الألم وليس رقدته غير المريحة.

سأل العجوز عن الدم, لكنها لم تكتفِ بسؤاله، بل سألته أولا عن السبب وراءه, كانت الوحيدة في القبيلة التي يمكنها ذلك, فقد اتخذت إلى حد كبير منصبَ وصيف الزعيم, الذي شاركه في صعوده للحكم, وتقبل راضيًا أن يخبو إلى ظل الحاكم مستفيداً بكل الصلاحيات, وعالمًا بأنّ وجوده مرتبط بالتزام حدود الظل. عندما حكى لها ، أخبرته أن هذا جيدٌ, فهذا بعثٌ جديد !

تذكرت حالَها، عندما كانت تحكي للأطفال حكاية الغزاة، وقد كانت من داخلها قد استسلمت لنهاية حياتها, ثم هبَّتْ لتشارك في المهمة مع (فو), ليصبح لديها الآن ما تحكيه و تفتخر به أيضا.

فهي شاهد عيان على أكبر حدثين في تاريخ الجزيرة, وكما يقولون: لا شيء يقارن بأن تكون هناك بنفسك في وسط الأحداث!

أخبرت (فو) أن هذا السائل موجودٌ بنفس اللون في كل ما يتحرك, ما عدا ثمار جوز الهند، هي الوحيدة التي يكون سائل الحياة بها لونه شفافًا, أخبرته أيضا أن لديها اكتشافًا جديدا, فقد سقطت سهوا إحدى حبات الطماطم في الماء وهي تطبخ, وإذا بها تحول لون الماء كله إلى اللون الأحمر, وبهذا يمكنها مضاعفة سائل الحياة أضعافًا كثيرة.

ارتشف (فو) من السائل الجديد, وأبدى إعجابه بمذاقه, فأخبرته أنها جربت نفس الشيء مع ماء البحر لكن لم يعجبها الطعم, لكن عندما خلطت الماءين, ماء النهر مع قليل من ماء البحر أصبح لديها مزيج ذو طعم مختلف.

مع بدء مفعول الحساء الأحمر, أحس (فو) القوةَ تسري في أوصاله، وطلب منها أن تنتظر لحين عودته حتى يعلنوا الاكتشاف.

ذهب (فو) إلى الاطفال يلعب معهم قليلا, فقد ازدهرت الحياة على الجزيرة بعد توليه الحكم, رُزق هو فقط بأربعة أولاد جدد, اثنان من زوجته، واثنان من زوجة سو, سمى (فو) ابنه الأول والثاني منها باسم "سو"، ولم يكن هذا مُرْبِكًا في الحقيقة, فقد كان أقل إرباكا من اختراع اسم

جديد, فقد أصبحت المعضلة الآن أن الأسماء ثنائية الحروف لم تعد كافية, فأصبح الأسهل الأسماء الثنائية المقاطع, فصار يشار إلى الطفل باسمه الذي غالبا يختار من أسماء الموتى، ويلحق به اسم أبيه.

أخبر (فو) زوجتيه، وكان قد أخبر العجوز قبلهما، أنه سيصعد الجبل وحده هذه المرة. كان عليه أن يعود إلى مبعث مجده القديم مرة أخرى, إلى الشراع، فرغم كل ما وصل إليه (فو) من نجاح في الزعامة, إلا أنه لم يهنأ يوما بعيدا عن حُلمه الأول, الرحيل!

عليه الآن أن يعود إلى داخله, هذه المرة إلى الدم!

مكث هذه المرة بين كهفه، وكهف سو, أخذ يخاطب سو لسبب غير مفهوم, فقد راوده كثيراً في المدة الماضية أن سو لم يمت, بل نجح في الرحيل, لكن كان عليه ليرحل من هذا العالم أن يترك جسده وراءه, أو يعطي جسده لروح الموت كما قالت العجوز، مقابل أن يرحل هو بروحه إلى مكان آخر, كان (فو)، في الحقيقة، يحنّ لصديقه الوحيد, فلم يسبق له أن تشارك حلما أو حديثا مع أحد سوى سو والعجوز.

ندم (فو) كثيرًا لقتله الحيوان الغريب الذي هداه قبل ذلك, ربما كان ليهديه الآن أيضا.

أخذ (فو) يمارس طقوسه المعتادة في التأمل. مفرداته القليلة تراكمت في ذهنه, الشمس والقمر مصدر الروح ينبثان من مكان هناك في قلبِ البحر!

البحر الذي لا لون له، الدم الأحمر الذي يجري بداخلنا، وفي ثمرة الطماطم!

ماء الحياة الشفاف داخل جوز الهند، البرق الذي يأخذ روحًا ليعطيها لروح أخرى, فرصته الثانية في الحياة، كما أخبرته العجوز.

المطر ماء السماء الذي يساعدهم على النمو, تذكر أيضا ذلك اليوم الذي احتضنته فيه الأمواج, تذكر أن الماء هناك في السماء أيضا.

أي علاقة منطقية يمكن أن توجد بين هذه المعطيات, هذا هو ما عليه أن يكتشفه. فكّر أن أسهل الطرق هو أن يرحل مع سو, أن يترك جسده لأقرب صاعقة تأتي.

لكن وفي حضور كشف جديد فكّر أنّه يجب أن يعمل عقله أولا، لم يتوصل إلى شيء على الجبل فعاد مرة

بدأ في حضور كل عمليات الذبح التي تقوم بها القبيلة, لم يكن مهتما بما يراه، بل بما يوجد بداخل الحيوانات, لاحظ أن جميعها تشبه بعضها من الداخل, عرف الثمرة التي تصدر الصوت الذي بداخل كل الحيوانات, القلب!

عرف أيضًا أن هذا القلب إذا تم سلقه أو شيّه، يمكن أكله, تماما مثل الكبد, وجرّب بالطبع أن يأكل الأشياء الأخرى، لكن لم يستسغ طعم معظمها. لكن هذه الملاحظة جعلته يفكّر في البحر, إن البحر يرتفع وينخفض في المد والجزر تماما مثلما ترتفع بطنه أثناء التنفس, إذن فهذا الخليج هو بطن البحر, ويجرى به سائل شفاف مثلما يجري الدم في عروقه, وإذا كنا نستخرج منه أسماكًا يمكن أكلها إذا تم سلقها أو شيّها, فهذا يعني أن البحر مثلنا, كائن حيّ آخر، لكن ماء حياته بلا لون، ونحن نأكل ما بداخل بطنه!

إذن نحن نفعل بالبحر مثلما تفعل الناموسة بنا, نأخذ من ماء حياته أسماكا نأكلها, وحتما إن بداخلنا أسماكًا

صغيرةً يصطادها الناموس ويأكلها, تذكّر متابعاته لعمليات الذبح عندما كان يذبح أمامه بقرة، أو شاة، ويرى العشب غير المهضوم ما يزال كما هو. فكر أن هناك, بعيدا, يوجد مكان يأكل منه البحر, نبذ الفكرة فوراً، وبدون أن يتحمل عناء تفسير سبب الرفض، أو حتى يحاول إيجاد مسوّغ لذلك, فبماذا سيفيده العثور على مكان أكل البحر، وهو لا يستطيع ركوب الموج بعد ذلك بسبب عجزه؟, وبماذا سيفيده إحضار هذا الأكل إلى هنا؟ إن لديهم وفرة من الأسماك، ومن كل شيء.

إن عدوه هو البحر, البحر الذي يمنعه من الرحيل، وعليه أن يجد حلا لذلك. وهذه السماء أيضًا هي بالتأكيد جزء من هذا البحر؛ فمنها ينزل ماء يشبه ماء البحر ولونها قريب من ماء البحر, إذن السماء والبحر كائنٌ واحد يحدّ عالمنا, شاهد ذلك عن قرب عندما احتضنته الأمواج وعليه فقط أن يذكّر الناس بذلك، خصوصًا من فعلوا مثله وركبوا الامواج، ورأوا أن الماء يمكن أن يعلو فوقهم في السماء.

اختمرت الفكرة في عقل (فو), لكن لم يعد هناك مواسم ندرة أسماك لينتظرها، ولا بطون جائعة يسهل إقناعها,

فعرض الفكرة على القبيلة في مساء أحد الأيام، وأخبرهم أن مشروعه القادم سيكون صيد البحر، أخبرهم أنه سيصطاد البحر نفسه، ذلك الكائن الكبير، وسيمكّنهم أن يأكلوا منه كما يحبون بعد ذلك.

هلّل الحضور للفكرة!

أبدى أحدهم خوفَه من أن يقطع ذلك مولد الشمس والقمر!

أخبره (فو) أن الشمس والقمر يولدان من بعد نهاية البحر، فقد رأى خط نهاية البحر، نهاية عالمنا، ورآهما يأتيان من بعده!

وافقه رجال كثيرون على ذلك، فقد رأوا بالفعل خط نهاية البحر من فوق الجبل، وأحيانا عند ذهابهم للصيد.

سأله أحد الرجال: أين سيضع البحر بعد أن يصطاده؟ وأجابه (فو) أنه سيجفّفه من سائل حياته، الذي هو الماء، ثم يعلّق الأسماك على فروع الأشجار، من هنا إلى الجبل، أما البحر نفسه فسنقطّعه، ونبقيه عند جدول الماء، وفي منزل العجوز!

سأله آخر: كيف سنعرف أن طعم البحر جيد ، وأنه صالح للأكل؟ أجابه بأن الأسماك التي بداخله طعمها جيد ، ولذلك سيكون طعم البحر مستساغا أيضا. وإن لم يكن؛ فأن الأسماك ستكفينا بالتأكيد.

سألته امرأةٌ كبيرة، بحزن: لماذا نريد اصطياد البحر، إذا كان بالفعل يعطينا ما نريده، وزيادة؟!

انضمت أخرى إليها: وماذا سيحدث بعد نفاد الأسماك، وبعد أن نأكل كل لحم البحر؟

توقف (فو) قليلا عن الحديث؛ فمخاوف نفاد الطعام ليست بالأمر الهيّن, ولن يطيعه أحد إذا تصوّروا أنه سيمس قوت أيامهم المقبلة. لذا فقد اقترحت العجوز بعينيها أن يطيع مخاوفهم, وقرر (فو) أن يرسل رحلةً استكشافيةً قبل أن يتخذ القرار النهائي!

اقنعت العجوز (فو) بأنه لا يجب أن يذهب بنفسه نظراً لتقدمه في العمر, كذلك رأت أيضا زوجتاه وابنه الأكبر الذي اقترح أن يذهب هو في هذه الرحلة, حتى يبقى السبق في عائلتهم!

لم يمانع (فو) ذلك؛ فقد أسرّ له أبناؤه بعدم تحمّس الناس للمغامرة, فهم قانعون ما دام لديهم ما يكفيهم.

صعب أن تُقنع المرفهين، أو القانعين بما لديهم، بأن يثوروا!

لذلك أمر (فو) ابنَه الأكبر أن يختار معه للمغامرة من يريد أن يذهب، ولا يجبر أحدا, ولم يكن ذلك صعبا.

أتم الرجال بناءَ الطَوف الأكبر في تاريخ القبيلة, واختار (فو) ثلاثة من الأشداء ليرافقوه, لم تذهب العجوز معهم ولم تطلب حتى.

وأبحر الرجال، وانقطعت أخبارهم.

مع مرور الأيام, أصبح (فو) يقضي أيامه جالسًا على نفس المقعد، وبنفس الحال التي جلس بها الزعيم السابق!

انتظر (فو) أن ينجح ابنه في اصطياد البحر حتى يقدر أن يجففه, لكي يستطيع أن يمشي على أرض قاع البحر المجفّف, يمشي إلى حُلمه بعد أن كَبِرَ على ركوب البحر أو مطاردة البرق أو اصطياد السماء.

لكن ابنه لم يعد !

في إحدى جلساته مع العجوز، أخبرها عن أحلامه التي أصبح يراها وهو مستيقظ, يرى نفسه يمشي على أرض البحر بعد أن اصطادوه, ويصل إلى بيت الشمس والقمر, فيشهد ولادتهما, ويسميهما, ثم يذهب بعيدا, إلى العالم المختبئ؛ إلا أن العجوز تعجّبت من رغبته في الذهاب إلى العالم المختبئ: أنت هنا الزعيم الذي لم يسبق للجزيرة أن حظت بمثله!

نظر إلى بعيد جدا وهو يجيب: ولكنه ليس حُلمي.

- ولكنه حلم أي أحد.

- ولكنه ليس حُلمي.

نظرت العجوز بشفقةٍ إلى عينيه الزائغتين, أدركت أنها عيون شخص حكم على نفسه بالتعاسة في صورة حُلم!

كانت هذه آخر جلساتهم معا, ماتت العجوز بعدها, سقطت على الشاطئ مرة واحدة، وهي تحكي حكاية الرحلة, هرع إليها الجميع, قلبوها على ظهرها, أخذت تكمل الحكاية بابتسامة واسعة, ثم صمتت وعيونها مفتوحة على آخرهما وينظران للشمس. رفع (فو) عينه إلى الشمس وأطال النظر, أغلق عينيه قليلا فخيل إليه أنه رأى روح العجوز تنحسر إلى الشمس. انحنى يمسك يدها ولم يسمع شيئًا, لقد حَلَّتْ روح الموت, تلك الروح الصامتة, انحنى (فو) ليودُّعها، ولم يستقم ظهره بعدها من يومها قط!

راوده كثيرًا بعدها شعورُ الحنين المجهول الذي أحسه في أول غياباته, شعُر به هذه المرة كغصة خبيثة تعتصر قلبَه كلما نظر إلى الشجرة المحنّية, لكن هذه المرة لن يكون هناك إحساس العودة!

لم يأت مكان العجوز عجوز أخرى، بل اتخذت زوجته الثانية مكان العجوز!

مرة أخرى تحركت تلك المرأة لتحمي مصالحها؛ رأت أُفولَ نجم زوجها, وأدركت أنها ستكون أم الزعيم القادم,

فهي الآن أم أكبر أبناء (فو). وقد تطوّعت لتتولّى أمر الصغار؛ لأنها تعلم أنها بذلك تسجّل تاريخ القبيلة, وتسجل مستقبلها, خصوصا أن بعض رجال ونساء القرية كانوا ينضمون لجلساتها في بعض الأحيان, فقد أدى اختراع الأطواف خصوصا، بعد أن أضافوا إليها أشرعة من جلد الحيوانات، وطوّروا المجاديف التي يستعملونها إلى توفير وقت، وجهد كبيرين. فأصبح لدى الجميع وقت للترفيه واللعب, وكلّما انضم بعض الكبار أخذت تحكي عن الرحلة، وحَرَصَتْ في ثنايا الحكاية على إيصال فكرة أن ابنها هو ابن "سو"، و(فو) معا, ابن زعيم، وحفيد زعيم آخر!

استيقظ (فو) متأخراً قليلا, اعتاد على هذا مؤخّرا, إثباتا لأنه زعيم القبيلة الذي لا تجرؤ يد الشمس على دخول بيته أو لسعه.

ارتدى تاجَه المصنوع من ورقة شجر لا تذبل, وخرج من الكوخ منحنياً, ليرى الجميع الورقة تخرج أولا. وقد حلت الآن محل الخُصلة الصفراء!

نظر (فو) إلى أعلى، كما يفعل كل يوم لينظر إلى شجرة الشراع المجردة, وكانت تمنحه كل يوم إحساساً مختلفاً, يوما تمنحه الحياة, ويوما تأخذها منه!

صدقت نبوءة العجوز الصغيرة الجديدة, ومات (فو) بعد أن انقطع رجاؤه في حُلمه, لكنه أوصى أن يوضع على طوف طوف ويترك في الماء, وأخذه ابنُه، والرجال إلى أبعد ما استطاعوا, ثم تركوه, لكن الموج البارّ أعاده إلى جزيرته مرة أخرى.

أبقاه ابنه أياما, أمر فيها بترك الحيوانات في العراء, أملا في أن يمنح البرق أباه روحًا جديدةً مرةً أخرى, لكن بماذا تفيد الروح جسداً بلا حُلم, وفور تيقُّن الابن من أنها النهاية, وأن بعض الموت موت حقيقيٌّ, شيد لأبيه ضريحا أقيم حول الشجرة المجرَّدة من الفروع، ودفنت معه ورقة الشجر التي كان يرتديها على رأسه، والتي لم تذبل.

بقيت في كل العهود بعده مراسم الحج في موسم ندرة الأسماك، لكن نسل (فو) لم يحكم القبيلة كثيرا, فبعد أربعة أجيال من أبنائه تم تنصيب زعيم جديد.

أدرك الزعيم الجديد من أول يوم في حكمه أنه لا سبيل لمنافسة (فو).

حاول أن يطمس تاريخ (فو)، لكن لم يجد سبيلاً لذلك.

فوجد أن الحل الوحيد هو تمجيد (فو)، أو بالأصح إخراجه من التصنيف, لأعلى أو لأسفل لا يهم, المهم إخراجه من التصنيف كزعيم؛ فأعلن الزعيم الجديد أن (فو) لم يكن زعيما بل كان إلهًا.

واستمر الزعيم الجديد في تنظيم رحلة الحج بنفس الطقوس!

الآن أصبحت الطقوس تحدث على ضريح الإله الذي كان يحيا بينهم, على ضريح (فو). ومع مرور الوقت اكتشف الزعيم الجديد أنه بأعلان (فو) إلهًا؛ تخلص من معضلةٍ كبيرةٍ كانت ستهدد حكمه.

معضلة توجيه الجزيرة, فهو لا يعرف أسرار توجيه الشراع، فقد كانت حكرا على نسل (فو), وقد هرب آخرهم بعد توليه الزعامة خوفًا من بطشه!

لذلك فقد ثبت له أن خروج (فو) من المقارنة شيء جيدٌ جدا.

أصبح الناس يبتهلون لـ(فو) لتوجيه الجزيرة لمكان أفضل، وأوفر أسماكا. فأذا وصلوا شكروا (فو)، ومجّدوا الزعيم الذي يحظى بمباركة (فو).

وإذا لم يصلوا، وجدوا من يلعنوه بعيدا عن الزعيم، وشاركهم الزعيم لعناتهم.

لقد مات (فو) لكن اسمه وحُلمه في الرحيل لم يمت، فبعد أجيال نجح بعض نسله أولا، ثم بعض أفراد القبيلة في الرحيل.

وقد هداهم تفكيرهم وقتها أن يذهبوا إلى بيت مغيب الشمس والقمر، لا إلى بيت خروجهم، فهناك سيكون اصطيادهم أسهل بعد أن تتعبهم الرحلة، ونجحت الفكرة ووصلوا بالفعل إلى جزر أخرى، لكن لم يعودوا بعد ذلك إلى قبيلتهم.

لكن حكايات من رحلوا عن الجزيرة، نبهت غزاة آخرين إلى وجود الجزيرة.

عندها فقط تحقّق الحلم، حلم (فو)، وحلم كل أفراد الجزيرة.

ووصل الغُزاة إلى الجزيرة, لكنَّهم هذه المرَّةَ استعبدوا كل من في الجزيرة، وأخذوهم معهم، وتركوها خاوية!

لا أدري بماذا يمكن أن يوصف الغزاةُ الذين استعبدوا وقتلوا أهل الجزيرة, غالبا ستذكرُهم كتبُ تاريخهم بأنهم متحضرون، وستصف أهلَ الجزيرة بالغَوْغاء الهَمَجِ البدائيين؛ فكون الشعب متحضرا ينعكس حتى على أكثر أفعالهم قذارةً ووحشية!

أما أهل الجزيرة الذين رحلوا سواء استعبدوا أم استقروا في جزر أخرى؛ أبقوا الجزيرة حية في التراث الشعبيّ، وتناقلوا عن (فو) بعضَ الحكايات التي زادت وزادت ودُوِّنَتْ لتصبح إرثا تراثيا كبيرا.

صحيحٌ أن (فو) لم يغادر الجزيرةَ، لكن أعماله فعلتْ وحَكَتْ عنه الكثير!

نهاية الحلم

رسا اليخت الفاخر لرجل الأعمال المحلي آدم أمام الجزيرة، نزل منه آدم, ليعاين قصره الجديد.

فبعد أن تبين عدم جدوى الجزيرة؛ اقترح آدم على الحكومة شراءها وبنى عليها قصرا على الشاطئ الرملي الصغير يواجه الخليج.

أطلق آدم على الجزيرة اسم (فو أيلاند).

أسعد هذا روح (فو), والجزيرة فرحت أيضا!

كما تبين عدم جدوى عظام (فو) في منح الحياة الأبدية, حدث ذلك طبعا بعد سرقة قطع منها, ثم اختفت باقي العظام كلها دفعة واحدة!

في مقدمة القصر أنشأ آدم منصةً صغيرةً من الزجاج، يعلوها صندوق صغير من الكريستال اللامع.

وضع فيها آدم ورقة الشجر، التي أخذها خلسة المساعدون، الذين أرسلهم مع البعثة الاستكشافيه من قبر (فو).

انتحى جانبا هو وزوجته بعد أن وضع الورقة، وتركها تتلألأ في الصندوق الزجاجي، ووقف وراءها مواجها الخليج.

ربّتت زوجته على كتفه: إن لك أن تفخر بأنك أعدت لأجدادنا جزيرتهم!

بنصف دمعة، ونصف ابتسامة وافقها قائلا: لقد أعدت إليهم حُلمهم الذي جاهدوا كثيرا ليفقدوه!